مختصر تاريخ الأباضية

تأليف
صاحب الفضيلة العلامة الشيخ
أبي ربيع سليمان الباروني

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

مختصر تاريخ الإباضية

مختصر تاريخ الإباضية

تأليف
صاحب الفضيلة العلامة الشيخ
أبي ربيع سليمان الباروني

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الخامسة
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
ص.ب : ٢ السيب - الرمز البريدي : ١٢١ - سلطنة عُمان

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ٠ والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من اختاره لرسالته واجتباه ٠ وعلىٰ آله وصحبه وتابعيهم وكل من جاء بعده واهتدىٰ بهداه ٠

أما بعد فهذا كتيب جمعت فيه ما لا بد من معرفته لكل مسلم من أقسام التاريخ الإسلامي ، ألا وهو التاريخ الأباضي ٠ لذلك أقدمه بمقدمة لأولئك الراغبين في الوقوف على كل ما خفي منه ٠ والله أرجو أن يضعه من نفوسهم موضع الرضا والقبول ، ويملأ أفئدتنا وإياهم بالانصاف ومحبة الرسول ﷺ ٠ والحمد لله رب العالمين ٠

مقدمة الكتاب

دعاني الى وضع هذا المختصر من تاريخ الاباضية ، وتذييلـــه ببيان بعض المسائل الخلافية جملة أسباب : منها أن كثيرا من الناس لا يعرف عن هذا المذهب شيئا ، مع ما عليه أهله من العظمـــــة التاريخية الخالدة · والبعض قد يعلم شيئا عنه ولكن يعده جهلا في جملة الخوارج (الازارقة والنجدية والصفرية) المارقين عن الاسلام بغلوهم في الدين ، وشططهم البعيد عن جادة الصـــواب ، كاباحتهم أموال الموحدين ودماءهم وسبي نسائهم وأطفالهم وابطالهم الامامة العظمى ولو توفرت شروطها ·

والأباضية يتبرءون من هذا كلـــه فيوجبون الإمامة العظمـــى ، ويحرمون أموال الموحدين وسبي نسائهم وأطفالهم مطلقا ، وكذلك دماؤهم حرام إلا ما استثناه النبي ﷺ في قوله « لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان ، وزنا بعد احصان ، وقتـــل النفس التي حرم الله إلا بالحق » · فيجب حينئذ العلم ويجب التمييز بين هؤلاء الضالين وبين الأباضيـــة الذين هم أعدل الطوائـــف الإسلامية ، اذ لا إفراط في معتقدهم ولا تفريط · وهكذا نرى البعض يعتبرهم معتزلة قدرية ، وهذا باطل أيضا لأن بين الفريقين خلافـــا كبيرا ، أهمه مسألة القضاء والقدر وخلق أفعال العبد ، فان الأباضية كالأشعرية في هذا الباب لا يقولون بخلق العبد لأفعاله ، ولا هـــو مجبور عليهـــا ·

وإن من شيء في الكون الا وهو مخلوق لله ، وليس للعبد فيه الا الكسب والاختيار ، فهم ليسوا من هؤلاء ولا من المرجئة القائلين بأن الانسان إذا قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وكفته هذه الجملة عن جميع التكاليف المفصلة في الشريعة • وعلى ذكر المعتزلة أقص عليك حكاية غريبة سطرت في كتاب مشهور من كتب الفقه المالكي وهو « حاشية العدوى على الخرشى صحيفة ١٧٦ من الجزء الخامس » وقفت عليها حال مراجعتي بعض مسائل الشهادات • بعد أن ذكر المؤلف شهادات المبتدع كالقدري والخارجي تقبل أو لا تقبل الخ قال : أخبرني من يوثق به أنه مات بالسودان رجل من المعتزلة الساكنين بجزيرة جربة ، فوجدوا رأسه تحول الى رأس حمار ، ثم تحصن بالله من غضبه ، وتعوذ به من الشيطان الرجيم • انظر بالله الى عالم فقيه كيف تجرأ على تشويه كتابه بتسطير مثل هذه الحكاية الواهية بين دفتيه ، وقد صدقها بمجرد قول قيل له بدون أن يمحصها تمحيصا عقليا يقبله المنطق الصحيح ، وبدون أن يتنبه الى أنه فقيه من الفقهاء الذين يجب أن لا يجهلوا أن المسخ مرفوع عن أمة محمد اكراما له ﷺ وتمييزا لها عن سائر الامم • والظاهر أن الشيخ المؤلف ممن لا يفرق بين المعتزلة والاباضية ، فكل من عدا الاشعرية هو معتزلي في نظره ونظر فريق من العلماء الجامدين على معرفة مذهب بعينه لا يعرفون سواه الا بالاسم وبالسماع • والواقع أن سكان جزيرة جربة ـ التابعة لتونس ـ أغلبهم أباضية ، ونحو الربع أو الخمس مالكية ، وهم على أفضل ما يرام من جهة حسن الجوار

والاتفاق على خدمة مصالحهم المشتركة ومبادلة ما في جزيرتهم من المنافع • وتراهم أشد الناس عطفا على بعضهم البعض في الغربة ، وهم مشهورون بها في سبيل الرفه والغنى •

ومنها أني أريد من كل قلبي أن يزول الخلاف من بين المسلمين بتاتا أو يتلطف ويخف ، أو يبقى ولكن لا يكون مجهولا على الاقل فيجسمه الجهل ويزيده قبحا وبشاعة • وهو كما تعلم دائما الحاجز الحصين بين الحقيقة والانسان في كل شيء من هذه الحياة • وانه لمن المؤلم أن أقول : اني جالست كثيرا من العلماء المشهورين والأدباء المعروفين ، وقد يصادف أن يكون موضوع حديثهم الفقه مثلا ، فتراهم يتحاورون ولكن لا يدور حوارهم الا حول أقوال أئمة المذاهب الاربعة • ولا يذكرون المعتزلة الا في أمهات علم الكلام ، ولا يجري على ألسنتهم ذكر المذهب الأباضي مطلقا • وكثيرا ما أقول لهم : وعند الأباضية كذا وكذا ، الفاتا لنظرهم بلطف وأدب الى لزوم اعتبار أقواله من الفقه الاسلامي ولو مجاملة • وقد يجاوبك أحدهم بما لا يفسر الا بالمجاراة السطحية • ان تكرر الحال على هذا المنوال بالرغم من التعريض بنحو ما تقدم يدلنا دلالة لا تدع مجالا للشك على أن القوم لا يخلو حالهم ، اما أن يكونوا على جهل تام بهذا المذهب بحيث يجدون أنفسهم مجبورين على تجنب البحث في أقواله أو التقصير فيه ، والجهل عيب غير مغفور خصوصا بالنسبة للطبقة البارزة في الامة • واما أن يكون ذلك ناشئا عما تمركز في

نفوسهم من أنه لا يوجـــد للمسلمين مذهب رسمي غير المذاهـــب الأربعة ، وهذا ما جعلهم يقفون من غيرهم ذلك الموقف المشين ، وان كان فيه ما يحرج خاطر جليسهم من عدم احترامهم لمذهبه وقلـــة الاكتراث به • ومع ما فيه فهو اعتقـــاد لا يقرهم عليه أي مخالف للمذاهب الأربعة • انظر الى أي حد بلغ حال بعض المسلمين مـــن التعصب المذهبي ، ثم انقل النظر الى علماء الأباضية فانك تجدهم أحسن حالا من هذه الجهة ، فانهم يعتبرون أقوال مخالفيهم من أهل القبلة كل الاعتبار ، ويسوقونها في تآليفهم ، قال الامـــام السالمي رحمـــــه الله :

وخذ بما قال أولو الخـــلاف ما لم تجد في كتب الأسلاف

وذلك في أرجوزته الفقهية المشتملة على نحو أربعة عشر ألـف بيت ، سواء ذلك في علـم الفقه أو الأصول أو الكلام • فمن يقرأ كتبهم يظهر منها عارفا بكثير مما قاله المالكية والشافعية والحنفية •

هذا ما عليه الاباضية ازاء أقوال مخالفيهم ، فأين ما ينسب اليهم من التعصب ، ومن أحق بأن ينسب اليه هذا الوصف بعد ما رأيـت وسمعت • نعم ادعاء كونهم الفرقة الناجية وأن لهم أدلة تثبت ذلك هو حق • إلا أن هذا الادعاء ما من فرقة من الفرق الثلاث والسبعين الإسلامية إلا وتدعيه • والله سبحانه يفصل بينهم يوم القيامة فيمـا كانوا فيه يختلفون • فلنقرأ كل ما بين الفرق الاسلامية المهمة مـــن الفروق لتألف نفوسنا ذلك ، وتستأنس بالمرونة والتكرار بما هنالك ،

فيهون ما كان مهولا ، وربمـــا زال واضمحل بفضل المطالعـــة والانصاف • فتظهر النتيجة ويصبحوا كلهم على مذهب واحد عملا واعتقادا ، ولا شيء من الصعوبة في توحيد هذه الفرق متى كـــان رائد الكل طلب الحقيقة ، وكان الفكر حرا مطلق العنان في البحـث عنها لا يقيده التعصب ولا يزهده فيها ظرف الزمان وظرف المكان ، ولا يسيطر على النفس الا الوجدان وسلامة النية وطهارة القلب وحرية الضمير • فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها لا يعنيه أي وعاء خرجت منه ، ولا أي مكان ظفر بها فيه • اذا كان هذا هو معـــول عقلاء المسلمين فلست أرى بينهـــم وبين المطلوب الا عملا قليلا في تساهل يسير ، ومن الواجب حينئذ أن تقرر دراسة التاريخ الإسلامي المجهول للتلاميذ كتاريخ الأباضية مثلا وغيره فيقفون على سيـــرة ائمتهم العادلين المغاربة والمشارقة كوقوفهم على سيرة الخلفـــاء الراشدين والملوك الامويين والعباسيين ومن بعدهم كالسلاجقـــة والايوبيين والفاطميين والعثمانييـــن وغيرهم من ملوك الاندلس والمغرب والمشرق ، فينشأ التلميذ ملما بجوانب التاريخ الإسلامي ، عالما بسير الملوك العادلين والجائرين ، فيقدر بفكره المستقل أولئك ، ويسر بما اتصفوا به من العدل والاحسان ، ويجهد نفسه بأن يكـون عادلا في أعماله متصفا بالفضيلة في جميع أطوار حياته • وينقبض من هؤلاء وظلمهم ويمقت الجور ويزهد فيه ويتجنب كل نقيصـــة تشينه • وميزان العقل إذا أطلق من قيوده هو أعدل ميزان ، وحكمه إذا أخذ به على ضوء الايمان بالله هو أصدق حكم ، ودين الإسـلام

واحد وتاريخه العام هو مرآته المنطبعة فيه صوره الصحيحة ، فلمثل هذا فليدع الداعي وليعمل العامل ٠

ومنها أني كنت جمعت قريبا من ثلث هذا الكتاب كرسالة ، ثم بعد وقت من ذلك رغب الى بعض الاصدقاء أن أضع كتيبا مفيدا مختصرا في نفس الموضوع ، فلم أر من بأس في اجابته إلى ما رغب ، فحورت ما جمعته أولا وأضفت اليه ما مست الحاجة الى اضافته ونسقته على الأسلوب الذي ستراه ، متوخيا الاختصار التام ٠ إذ ما من أحد إلا ويلاحظ عليه أنه يرغب في أول ما يرغب معرفته منك حياتك التاريخية ومعتقداتك الدينية ، وهذا ما سيستفيده القارىء من هذا الكتاب فيما يختص بتاريخ الأباضية واعتقاداتهم ٠٠٠

هذا وانه لمن المروءة والاعتراف بالفضل لأهله أن نختم هذه المقدمة بالتنويه بشأن كل من الأستاذ أحمد توفيق المدني والأستاذ عثمان الكعاك والشيخ عبد الرحمن الجيلامي اذ لم يغمطوا حق الرستميين (وهم أُباضية) ، بل نوهوا بشأن دولتهم بالجزائر وممتلكاتها الواسعة ، وما كانت عليه من العمران والرقي والعدل الشامل الشبيه كل الشبه بعهد الخلفاء الراشدين ، والاول قد زاد عن ذلك فاستطرد للتعريف بالاباضية ومواطنهم أينما كانوا قديما وحديثا ٠ وهو عمل يستحقون عليه الثناء الجزيل من جهتين : جهة انصافهم لهؤلاء الناس وما لهم في التاريخ من ذكر وأثر ، وجهة

التعريف بهم إلى الجم الغفير ممن يجهل تاريخهم النقي الناصع الذي هو جزء متمم لعقد التاريخ الاسلامي الزاهر ٠

وليس دونهم في استحقاق الحمد والشكر كل من الاستاذ السيد محب الدين الخطيب والأستاذ أمين سعيد ومن على شاكلتهما من المنصفين الذين لا يكتمون الحق ولا يكابرون الوجدان فيتعمدون هضم الحقوق وطمس الحقائق ٠ وفق الله الجميع لخير الدنيا والدين ، إنه ولي التوفيق ، نعم المولىٰ ونعم النصير ٠

******

مقدمة مختصر تاريخ الاباضية

للطبعة الثانيـة

إجابة لرغبة جمع غير قليل من الفضلاء ، لم أر مانعا من الإذن بطبع (مختصر تاريخ الأباضية) للمرة الثانية ، ذلك المختصر الذي يدعو الى توحيد المذاهب الإسلامية والى دراسة تاريخ الإسـلام دراسة وافية ، لكي يعرف الدارس ما هنالك من خلافات بين أهـل القبلة فيعمل الدارسون المصلحون على إزالتها أو تهوينها • وهذا ما قصدته من وضع هذا المختصـر الذي لاقى استحسانا وتأييدا صادقين من المفكرين المجردين عن الغرض والعوض داخل الوطـن وخارجه • وهم العاملون على توحيد المذاهب وجمع كلمة المسلمين على ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، ليقفوا سدا منيعا ودرعا قويا أمام غارات المبشرين ، وهجمات الساسة الغربييـن ، الذين يسعون السعي الحثيث في اضعاف المسلمين ، والحيلولة بينهم وبين استعادة سالف مجدهم وغابر عزهم • ولكن الذي يوجب الأسى والأسف أن بعض الأفاضل بدل أن يحبذوه ويشجعوه ، ثاروا في وجهه وقابلوه بغير ما يجب ، رغم إهداء مؤلفه نسخا منه لكثيرين منهم مدفوعـا بحسن الظن في أنهم سيقدرون مجهـوده ، ويفهمون مقصوده • ولكنهم خيبوا ظنه ، وأغروا بعض البسطاء على إقامة مظاهرة ضد مؤلفه ١٩٣٩ م بدعوى أنه كفر الصحابة وأحدث فتنة •• والحقيقة أن ليس بالكتاب اي شيء من هذا القبيل يصح أن ينسب للمؤلف ،

وإنما الذي ورد فيه هو رسالة من الامام عبد الله ابن أباض أرسلها كنصيحة وموعظة الى الخليفة عبد الملك بن مروان جاء فيها ذكر أشياء صدرت عن سيدنا عثمان لم ترض جمهورا كبيرا من الصحابة والتابعين · وقد ذكرت في كثير من كتب التاريخ ولم يتأثر منها ابن مروان مع أنه أقرب نسبا منا جميعا الى عثمان ، وهو من اعلم فقهاء التابعين بأحكام الاسلام ·· ولم ينقل الينا أنه بطش بابن أباض على كثرة من بطش بهم مباشرة وبواسطة عماله كالحجاج وأمثاله · وقد استغرب المنصفون من قيام تلك المظاهرة · لانها في الواقع قامت ضد المصلحة العامة التي يرمي اليها المؤلف ، وهي جمع العقيدة الإسلامية في مذهب واحد قولا وعملا كما هو واضح في مقدمة الطبعة الأولى · وفضلا عن هذا فان الموعزين بها يعلمون جيدا أن هنالك أحكاما وفروضا دينية مجمعا على وجوبها تركا أو عملا تنتهك جهارا ويستخف بها علنا ولم يحركوا لأجلها ساكنا ، بينما هم قد قاموا وقعدوا لرواية تاريخية جر لذكرها سياق الحديث لا أقل ولا أكثر · وهي ليست من أركان الدين المجمع على وجوبها · ثم ان القاعدة العامة المتبعة في حرية النشر والجهر بالعقائد في كل زمان ومكان قد تخلف العمل بها في خلق هذه المظاهرة تخلفا مخجلا ، ونسي القائمون بها أن هناك أيضا أصلا معمولا به عند الفقهاء وهو أنه لا يعترض بمذهب على مذهب · وهذا نقوله لهم في صورة ما اذا ألبسنا هذه الناحية التاريخية لباس عقيدة مذهبية · أما الواقع فليس كذلك ، ولا أجد ما اقوله هنا

للتسلي غير قول الشاعر :

أسير على نهج يرى الناس غيره لكل امرىء فيما يحاول مذهب

ويا ليتهم عملوا بما يرمي اليه شاعرنا هذا ، إذاً لسلموا من نقد الناقدين في هذا الموضوع وفي غيره ٠ وعلى كل حال فكلنا بشـــر والبشر يخطىء في أعماله ويصيب ، والعصمـــــة لمن خصهم الله بالعصمـــــة ٠

قد كان أملي أن يعاد طبـــع هذا المختصر في حجم أكبـــر وفي ملاحظات وأبحاث أوسع ، ولكن ظروفي الخاصة وأحوالي المرتبكة بمعاكسات الزمان وصرفه لم تسمح لي بشيء من ذلك ، كما أنها لم تسمح لي بوضع يوميات أو حوليات عن مجريات حياتي منذ أيـــام دراستي ، أو على الأقل من أول عام ابتليت فيه بالقضاء وهو ١٩١٩م إلى عامنا الحالي ، ولكن الامر الواقع هو ما يحمله المثل السائـــر « أنا أريد وأنت تريد ، والله يفعل ما يريد » ٠ وان الانسان في حياته الدنيا مسير غير مخير ، وكم من انسان في نفسه أشـياء هامة يود أن يجهر بها ويخلد تدوينها وهو حي ، فتمنعه الموانع وتعوقه العوائق فيموت وتقبر معه أو تنشر بعده ٠ فيحرم من مشاهدة ما كان لها من الأثر في المجتمع ٠٠ هذا ولو كنت من الذين يحفلون بتقاريظ مؤلفاتهم لقبلت عشرات منها من مختلف طبقات الشمال الافريقي ، وقد أعرب لي كثير من الأدباء والأحرار عن استحسانهم لهذا التأليف والرضا عما جاء فيه من غايات سامية تروق في أعين المصلحيـــن الأبرار ،

وتحل من أنفسهم محل تقدير وإعجاب ، كما أكدوا لي استهجانهم موقف الذين نظروه بعين السخط والاشمئزاز ، وفي مقدمة هؤلاء الفضلاء عظيم تقي نزيه هو الاستاذ الكبير الزعيم الحر السيد محيي الدين القليبي رحمه الله ، فقد جاءتني منه رسالة قيمة سأكتفي بدرجها في صلب هذه المقدمة ، ليعلم الانسان المفكر ويتعجب كيف تختلف آراء الناس وتتعارض أفهامهم في شيء واحد وموضوع واحد ، ذلك لتتجلى مشاعرهم واضحة كالشمس في قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وهنا يوقن العاقل ويسلم تسليما لا مراء فيه بأن رضا الناس غاية لا تدرك ، وأن القول الصدق وهو ما قيل :

وما أحد من ألسن الناس سالم ولو أنه من كل عيب مبرأ

واليك أخي نص الرسالة الآتية من هذا الرجل الذي لم يسبق بيني وبينه أي اجتماع أو تعارف قبل ورودها :

تونس في ٢٥ رجب ١٣٦٤

سماحة الأستاذ الأكمل مصدر الكمالات والفضائل ، أبو الربيع سليمان الباروني أبقاه الله وأمتعنا بعلمه وفضله ٠ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

أما بعد فقد دلنا عليك حسن الثناء ، وعظيم الامل والرجاء ٠ أما الثناء عليك فمن ألسنة الخلق ، وألسنة الخلق أقلام الباري ٠ وأما

الرجاء فيك والأمل المعلق عليك فهما نتيجة ما تجلى في كتابك القيم « مختصر تاريخ الاباضية » من آراء سامية في اصلاح المجتمع الاسلامي ، والقضاء على أسباب تفككه وتحوله عن المنهج القويم • فآراء كالتي شرحتها وآمال كالتي ترمي الى الوصول اليها تجعلنا نمد اليك من هنا يد الأخوة ، ونطالبك بالنصيحة الخالصة ، ونؤمل منك التعاون معنا على التقوى والبر بجماعة المسلمين وما فيه خير الجميع والسلام عليكم ورحمة الله •

من الفقير إلى الله الغني الاكرم : محيي الدين القليبي

هذا ما دبجه يراع ذي التصانيف العديدة في السياسة والاجتماع السيد محيي الدين القليبي ، الذي يعترف له كل من عرفه بالنزاهة والترفع عن الدنايا والاخلاص العميق لوطنه تونس وللعالم الاسلامي الذي مات غريبا في سبيل خدمته ، والذي ارتفع ذكره فيه ارتفاعا لا يقل عن زملائه في العمل ، كالامير العظيم عبد الكريم الخطابي ، وأصحاب السماحة والشهامة الحسيني والابراهيمي ، والمرحومين الثعالبي والباروني والسنوسي • فو الله الذي يعلم السر والجهر أن رسالة القليبي لتعبر أصدق تعبير عما يكنه ضميري من الخير والسعي الى ما فيه صلاح المسلمين ، والحث على كل فضيلة ترفعهم الى أعلى عليين • ولكن :

يريد المرء أن يعطي مناه ويأبى الله إلا ما يريد

وصدق من قـــال :

أرىٰ نفسي تتوق الى أمور ويقصر دون مبلغهن مالـي

فنفسي لا تطاوعني ببخـل ومالـــي لا يبلغني فعالـي

فالى الله أبتهل أن يمنح الاسلام الرفعة والسؤدد على أيـــدي مصلحين أقوياء لا يخافون في الحق لومة لائم ، ولا يخشون الفقـر بانفاقهم الدائم ، ولا يهابون الموت في سبيل إعـزاز الدين ، وحفظ كيان الوطن وجمع كلمة المسلميـــن ، ليحيوا حياة طيبة سعيـــدة يسودها الهناء والوفاق ، حياة سالمة من الفقر والجهل والشقاق ، إنه على جمعهم اذا يشاء قدير · وصل اللهم وسلم علىٰ سيدنـــا محمد البشير النذير السراج المنير قائد البشر إلى ما فيه السعـادة والخيـــــر ·

الرسول الاعظم محمد

صلى الله عليه وسلم

ولد نبي الله ورسوله إلى جميع خلقه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧١ م حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا المصري من أبوين كريمين كل منهما قرشي النسب الام آمنة بنت وهب من زهرة بن كلاب والاب (عبد الله بن عبد المطلب) من بيت هاشم بن عبد مناف أشرف بيت في العرب وفي قريش · ونشأ عليه السلام تحت كفالة جده نشأة صالحة لم يعهد في الناشئين مثلها - الهاما من الله وتوفيقا وارهاصا لنبوته - وعاش يتيم الابوين ، ولما بلغ من العمر خمسا وعشرين تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد القرشية وكان عمرها اذ ذاك أربعين سنة فبقي معاشرا لها أحسن عشرة لم يتزوج غيرها قط الى أن ماتت رضي الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من بنائه بها كانت فيها مثالا أعلى للوفاء ومكارم الاخلاق ، والقيام بجميع الحقوق الزوجية ومتعلقاتها · فتأمل كيف أنه عليه السلام لم تطمح نفسه إلى غيرها من النساء الشابات الجميلات وهو في تلك السن التي فيها دم الشباب يفور ويثور ومن شأنه أن يحمل أولي القوة والجمال الى الرغبة فيهن · ومن هنا تعلم أن زواجه بغيرها بعد ذلك لم يكن إلا لحكم هامة عامة تصدى لبيانها وعلة مشروعيتها جماعة من كبار المحققين في هذا العصر ، دفعا لشبهات طالما يذكرها المستشرقون وبعض النقاد المضللين · وقد أعلن رسالته على رأس الأربعين ولم يذكره من العرب قبل ذلك أحد بسوء ولا كانوا ينظرون اليه إلا بعين الاجلال والاكبار نظرا لما اتصف به من الصفات الحميدة والفضائل الجمة وفي طليعتها الصدق والامانة اللتان يشاهد الناس آثارهما في جميع أقواله وأعماله حتى

سموه الامين وأصبح به يدعى من بينهم . ولما صدع بأمر ربه وقام يدعو الى الله وتوحيده ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن تلك المعجزة الخالدة التي بهت أمام بلاغتها أولئك البلغاء المطبوعون وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، عند ذلك كذبوه ونعتوه بالسحر والجنون وبالغوا في الاذى الى حد لا يقوى على تحمله من لم يكن مؤيدا بقوة روحية تفوق تصورات البشر . ومحال أن يصبر على ما صبر عليه من لم يكن ملحوظا بعناية الله محفوفا برعايته محوطا بسياج من قوة قدرته . دعاهم غير مكترث بعراقيلهم المتنوعة بيقين لا عهد لهم به وثبات لا مثيل له محتسبا لله ما يلاقي من العنت والتكذيب ودام على هذا المنوال أمدا غير قصير . وقليل منهم من وفقه الله في هذه الاثناء فأسلموا على خوف عظيم مما يلحقهم من الأذى والارهاق ، فمنهم من أذن له في الهجرة الى الحبشة لذلك ومنهم من بقي بمكة محتسبا صابراً على ما لا يطاق مضضه ولا يقوى على تحمله الا من تمكن الايمان من قلبه واخلص النية لله وحده وهم الذين ﴿إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ كالصديق ومن على شاكلته من المهاجرين الصابرين في البأساء والضراء وحين الباس . ثم بعد البلاء الشديد الطويل العريض الذي لا يناسب هذا المختصر شرحه أمر ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد الاتفاق مع أهلها على النصر والتأييد ، فهاجر مختفيا ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ، فوصل المدينة بعد أن رأى منه من مر بهم في طريقه خوارق عجيبة . فآواه المدنيون ونصروه ووفوا بما عاهدوه عليه وجهر بالدعوة . وأمر لحمايتها باستعمال الشدة والقوة فقام بسرايا وغزوات منها : بدر . وأحد . والاحزاب . والفتح وحنين . وتبوك وغيرها . مما دعت اليه حماية الدعوة ونشر الدين وابلاغه إلى العالمين . فما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى سنة ١١ هـ (سنة ٦٣٢م) حتى لم يبق في شبه الجزيرة معبود غير الله الواحد الأحد ، وحتى أبلغ المشرقين صدى دعوته إلى الله ودينه .

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

ثم خلفه الصديق على الاثر بانتخاب المسلمين اياه بعد خلاف بسيط · وكان للصديق اليد الكبرى في تثبيت الناس واقرارهم على الحالة الطبيعية · حال موت الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك حين كثر بينهم القيل والقال فمن مصدق بموته ومن مكذب ، حتى هاج الناس وماجوا من هول ما أصابهم ومن شدة الهلع الذي استولى على قلوبهم ، فما نطق أبو بكر بقول الله تعالى﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ حتى شعر الناس بروح جديدة تسربت الى نفوسهم ، وسلوى انسابت الى أفئدتهم ، فكأنهم قبل ذلك لا يدرون أنها آية تتلى من فرط ما أصابهم من الفزع والذهول · ولا غرابة فقوة ايمان أبي بكر ويقينه لا مطمع فيهما لغيره وقد قال فيه النبي عليه السلام « لو وزن ايمان أبي بكر بايمان هذه الأمة لرجحه » وفضائله كثيرة لا تحصى ، واليه وحده يرجع الفضل في حمل الأمة على حرب المرتدين الذين حدثتهم نفوسهم بعد موت النبي ﷺ بالتملص من الأوامر الشرعية والامتناع من تنفيذها ، ولولاه لخارت قوى المسلمين وعظم خطر المرتدين والمتنبئين واشتد بلاؤهم وطمع في المؤمنين كل طامع ، بل ربما انهار كل ما شيده الرسول عليه السلام ، فأبو بكر على قصر مدته هو الذي ثبت دعائم الدولة الاسلامية ووطد أركانها نهائيا ، وما أجمل وأوقع في النفوس خطبته رضي الله عنه التي استهل بها خلافته فكانت دستورا لعهده الميمون · واليك نصها « أيها الناس ، اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني · الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق ان شاء الله · لا يدع أحد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل · وأطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة

لي عليكم » ا هـ · ولما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى الفـاروق ، والأمة الاسلامية كلمة واحدة راضية عنه عند موته ·

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بعهد من أبي بكر تولى عمر الفاروق خلافة المسلمين سنة ١٣ هـ (سنة ٦٢٤ م) وتسمى بأمير المؤمنين ، وهو أول حامل لهذا اللقب في الاسلام ، فاقتفى أثر سلفيه بما يجب وكما يجب من عدل لا مزيد بعده لمستزيد وزهد في الدنيا منقطع النظير وشدة مشكورة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصال وجال في حروبه الموفقة صولات زلزلت عروشا كانت تخر لعظمتهـا الجبابرة وتخضع لسلطـان الجالسين عليها أمم تعد بالملايين ففتح بعزيمته الماضية كلا مـن العراق وفارس والشام وفلسطين ومصر وغيرهـا على يد قواده العظام أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم من الابطال الخالدين ، ونظم الدولـة الاسلامية تنظيما لم يسبق له نظير ، وبينما الناس في أرغد عيـش وأهناه متمتعين بعدله وشفقته وعطفه اذ طعنه ـ على غير انتظار ـ أبو لؤلؤة المجوسي فيروز غلام المغيرة بن شعبـة بمؤامرة الموالي الذين دوخ عمر ممالكهم بفتوحاته فمات شهيدا مبكيا عليه مأسوفا على مأثره وعلى سيرته المرضية وأيامه الزاهية البهية وذلك سنـة ٢٤ هـ (سنة ٦٤٤ م) وعهد بالخلافة الى جماعة من كبار الصحابة جعلها بينهم شورى فحكموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وبعد اختبار وامتحان وجس لنبض الفكر العام وقع اختياره علـى عثمان بن عفان الاموي ·

خلافة عثمان بن عفان الأموي

تولى الخلافة عثمان بانتخاب الامة عن طريق عبد الرحمـن بن عوف المفوض له ذلك من طرف المرشحين اليها كما علمت · فسـلك

سبيل اسلافه ردحا من الدهر ، واتسعت في عهده الفتوحات شرقا وغربا وشمالا ، وأحدث أول أسطول اسلامي على يد واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان ، وقاتل هذا الاسطول وانتصر انتصارا عظيما على الاعداء · وقد قتل عام ٣٥ هـ (سنة ٦٥٥ م) وبويع بعده علي بن أبي طالب ·

خلافة علي بن أبي طالب الهاشمي

بعد موت عثمان بويع بالخلافة الامام علي صهر النبي وابن عمه · وبايعه فيمن بايع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام · ثم نكثا ما بعنقهما من البيعة واستنفرا معهما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر · فحاربهم علي وقهرهم في واقعة الجمل المشهورة · وفيها قتل طلحة والزبير وألوف من الطرفين · وأما السيدة عائشة فقد تابت من عملها بعد ذلك وندمت أشد الندم خصوصا لما أخبروها بأنها مرت يومئذ على ماء الحوأب الذي أخبرها الرسول بأن احدى نسائه ستنبحها كلابه وهي متلبسة بمعصية · ثم وجه فكره الى حرب معاوية بن أبي سفيان حاكم الشام فحاربه · وأشد الوقائع هولا وبلاء وقعة صفين التي مات فيها من المسلمين عشرات الألوف · وكادت الدوائر تدور على معاوية لولا دهاؤه ودهاء عمرو بن العاص مستشاره اذ دبرا ما أوقع التفرقة في صفوف المسلمين من رفع المصاحف (اشارة الى تحكيم المصحف الشريف) فانطلت الحيلة ونفذت المكيدة وتفرق رأي قوم علي : فمن قائل ان هذه حيلة يريدون بها أن يفرقوا كلمتكم ويلقوا الفتنة بين صفوفكم فامضوا على حقكم وواصلوا القتال حتى يتم لكم النصر ، ومن هؤلاء أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي · ومن قائل ان القوم يريدون السلم وحقن الدماء بين المسلمين اذ جعلوا كتاب الله بيننا وبينهم ، فلا بد من توقيف القتال لنقف على حقيقة الحال ونفتح باب المفاوضة معهم · فتغلب هذا الرأي وعين الطرفان حكمين أبا موسى الاشعري عن علي وعمرو بن العاص عن معاوية ، وبعد جدال عنيف ومذاكرات

سرية طويلة اتفق الحكمان على عزل معاوية وعلي ورد الأمر الى من ينتخبه المسلمون بعد · فكان باطن أبي موسى في ذلك كظاهره · ولكن عمرا كان يظهر خلاف ما يبطن · فأعلن الأشعري عزل علي ومعاوية لانه هو القائم أولا بتقديم زميله اياه ·· وأما عمرو فلما قام أعلن موافقته أبا موسى الأشعري في عزله عليا وأثبت صاحبه معاوية · فكان لهذا التحكيم أثره السيء وعواقبه الوخيمة على علي خاصة وجاء خير خادم لمصلحة معاوية · فخالف عليا قوم ووافقه آخرون فحارب من خالفه وندم · وحارب معاوية ولم يتوفق وأمضى بقية أيامه في تعب وعناء وهرج ومرج الى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ (سنة ٦٦٠ م) وكسرى العرب معاوية بن أبي سفيان لم ير منذ التحكيم الا ما يسره من الاقبال والتوفيق فقد أخذ كثيرا من البلاد التي كانت تابعة لعلي كمصر والحرمين واليمن وغيرها شيئا بالشدة والقسوة وشيئا باللين والاحسان وأساليب السياسة · ولا تسأل عن أهل الشام أنصاره الاصليين فانهم ما برحوا طوع اشارته لا يردون له أمرا ولا يسفهون له رأيا ·

الحسن بن علي بن أبي طالب

ولما قتل ابن أبي طالب كما تقدم بايع العراقيون ابنه الحسن · فما مضى غير زمن يسير حتى سلم الأمر لمعاوية ·

ملك معاوية بن أبي سفيان

ولما سلم الحسن ثم مات صفا الجو لمعاوية فشمر عن الساعد مجدا في كل ما يوطد ملكه ويدعم سلطانه · واتسعت في عهده الفتوحات من كل جهة وتقوى الاسطول في عهده قوة هائلة · ولما بلغ مراده وقبض على صولجان الملك بيد من حديد فكر في أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد فتم له ذلك أيضا بلا تعب ولا كبير عناء ·

اليزيد بن معـاوية ومعاوية بن اليزيد

ولما مات معاوية سنة ٦٠ هـ (سنة ٦٧٩ م) تولى اليزيد بعهد منه فعاث في الارض فسادا وشرب الخمـــر وأتى من أنواع المنكـــر والمحرمات ٠ وفي أيامه وعلى يد عامله على العراق عبيـد الله بن زياد كانت واقعة كربلاء المشهورة التي قتل فيها الحسين شـــهيد الحق وشهيد الدفاع عن حريمه وشرفه ٠ وفي أيامه أيضا كانـــت وقعة الحرة التي استبيحت فيها المدينة المنورة حـرم الرسول ثلاثة أيام وانتهكت حرمة مكة المكرمة ورماها قائده بالمنجنيق ، ولما مات اليزيد سنة ٦٤ هـ (سنة ٦٨٢ م) بويع ابنه معاوية وكان رجلا تقيا من جهة وضعيف الارادة من جهة أخرى فما لبث غير ثلاثة أشهـر حتى أجمع أمره على التسليم في الملك فصعد المنبر والناس مجتمعون فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فاني قد ضعفت عـــن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلـم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم ٠ ثم توارى عن الانظار الى أن مات ٠ وبـه انتهى ملك آل أبي سفيان بن حرب من بني أمية فانتقل الملك الى فرع آخر منه وهم آل الحكم بن أبي العاص ٠

ملك مروان بـن الحكـم وبنيه

تولى مروان بن الحكم سنة ٦٤ (سنة ٦٨٢) بعد تردد وبعد أن هم بالذهاب الى عبد الله بن الزبير ليبايعه بالخلافة وقد بايعه أهـل الحرمين وكثير من الأقطار قبل ذلك أي في أواخر أيام يزيد بـــن معاوية وكاد الأمر يتم لابن الزبير لو استعمل شيئا من الدعايـــة والدهاء في السياسة فقد كان عامل دمشق الضحـاك بن قيس معه أيضا وغيره كالحصين بن نمير الذي كان محاصرا له بمكة من قبل اليزيد فقد دعاه الى الذهاب لاخذ البيعة له من أهل الشام ومن نفس رؤساء الجيش المحاصر فأبى ٠ فكان ما أراده الله من بيعة مروان

الذي هم كما قلنا بمبايعة ابن الزبير لولا قواد بني أمية ومعارضتهم له . ومات مروان سنة ٦٥ هـ .

عبد الملك بن مروان

وبعهد من أبيه تولى الملك عبد الملك بن مروان الفقيه النابغة ، فوطد بحق ملك بني مروان ودعم قواعده وتغلب على من ناوأه كما تغلب على عبد الله بن الزبير بواسطة الحجاج بن يوسف الذي ضرب مكة بالمجانيق وصلب ابن الزبير وعتا عتوا كبيرا في العراق لما ولاه عبد الملك عليها بعد ذلك . والى هنا انتهى ما أردنا سرده من الحوادث التاريخية العامة اذ ليس المقصود لنا الا شيئا واحدا هو أن نأتي بمختصر وجيز من تاريخ مذهب الأباضية غير المعروف عند فريق كبير من أهل العلم والادب في الشرق الاسلامي مع نبذة مما بين هذا المذهب والمذاهب الأربعة من المسائل الخلافية تتميما للفائدة وتعريفا بما لا يعرفه الكثير من المتنورين منهم . وانما لاجل الربط فقط أوردنا سلسلة مختصرة من لدن رسول الله ﷺ الى عبد الملك ابن مروان المعاصر لامام الأباضية عبد الله بن أباض المري التميمي التابعي رضي الله عنه .

ظهور المذهب الاباضي وامامه عبد الله بن اباض

ظهر المذهب الأباضي في القرن الأول من الهجرة ، فهو أقدم المذاهب الاسلامية على الاطلاق إذ أن امامه المنسوب اليه عبد الله ابن اباض التميمي هو من التابعين الاولين المعاصرين لعبد الملك بن مروان (١) موطد الملك الأموي المشهور . وكانت لذاك مع هذا مراسلات نصائح غالية لعبد الملك تحتم عليه أن يعمل بأوامر الشرع فيعدل في الحكم بين الناس ليستوجب الطاعة التي يدعوهم اليها .

---

(١) ولد هذا الخليفة الاموي سنة ٢٦ هـ (٦٤٦ م) وتوفى ٨٦ هـ (٧٠٥ م) واما تاريخ معاصره الإمام ابن اباض ولادة ووفاة فلم نقف لهما على اثر .

جوابه الى عبـد الملك

وبما أنه الامام المنسوب اليه المذهب الأباضي ومن كبار التابعين المجتهدين في صدر الاسلام وفي القرن الاول من عصوره · فلا أرى من باس في ذكر أحد أجوبته الى عبد الملك بن مروان للوقوف على الروح الدينية السائدة ذلك العصر الفطري المجـــرد من الاهواء الدنيوية في غالب أحواله · واليك نص الجواب فليتأمله القارىء :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ وصلى الله على سيدنا محمد · مـن عبد الله بن أباض إلى عبد الملك بن مزوان سلام عليك فاني أحمـد الله لا اله الا هو وأوصيك بتقوى الله فان العاقبة للتقوى والمرد الى الله · واعلم انه انما يتقبل من المتقين · أما بعد فقد جاءني كتابـك مع سنان بن عاصم وانك كتبت إلى أن أكتب اليك بكتاب فكتبت بـه اليك فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر · زعمت أن ما عرفت منه ما ذكرت به من كتب الله وحضضت عليه من طاعة الله واتبـــاع أمره وسنة نبيه · وأما الذي أنكرت منه فهو عند الله غير منكر · اما ما ذكرت من عثمان والذي عرضت به من شأن الأئمة فان الله ليس ينكر عليه أحد شهادته في كتابه بما أنزل على رسوله انه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والكافرون والفاسقون · ثم اني لم أكن أذكر لك شيئا من شأن عثمان والأئمة الا والله يعلمه انه الحق وسأنزع لك من ذلك البينة من كتاب الله الذي أنزله على رسوله وسأكتب لك في الذي كتبت به وأخبرك من خبر عثمان والذي طعنا عليه فيه وأبيـن شأنه · لقد كان ما ذكرت كما ذكرت من قدم في الاسلام وعمل بـــه ولكن الله لم يجر العباد من الفتنة · لقد بعث محمدا ﷺ وأنـزل عليه الكتاب فيه تبيان لكل شيء يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فأحل الله في كتابه حلالا وحرم حراما وفرض فيه فرائض وفصـــل بين قضائه وبين حدوده فقال﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾وقـال ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾وقسم ربنا قسما وليس لعباده فيه الخيرة ثم أمر نبيه باتباع كتابه فقال له﴿اتبع ما يوحى

اليك من ربك﴾ وقال﴿فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » فعمل محمد ﷺ بأمر ربه ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه لا يرون رسول الله ﷺ يتعدى حدا ولا يبدل فريضة ولا حكما ولا يستحل شيئا حرمه الله ولا يحرم شيئا أحله الله ولا يحكم بين الناس الا بما أنزل الله وكان يقول اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، فعمل ﷺ ما شاء الله تابعا لما أمر الله يبلغ ما جاءه من الله والمؤمنون معه يعلمهم وينظرون الى عمله حتى توفاه الله عليه الصلاة والسلام وهم عنه راضون فنسأل الله اتباع سبيله والعمل بسنته · ثم أورث الله عباده الكتاب الذي جاء به محمد وهداه ولا يهتدي من اهتدى الى الناس بتركه · ثم قام من بعده أبو بكر على الناس فأخذه بكتاب الله وعمل بسنة نبيه ولم يفارقه أحد من المسلمين ولم يعب عليه أحد في حكم حكمه ولا في قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الاسلام عنه راضون وعليه مجتمعون · ثم قام بعده عمر فكان قويا في الامر شديدا على أهل النفاق يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين يحكم بكتاب الله وسنة نبيه وابتلاه الله بفتوح من الدنيا ما لم يبتل به صاحبيه وفارق الدنيا والدين ظاهر وكلمة الاسلام جامعة وشهادتهم قائمة والمؤمنون شهداء في الارض قال الله تعالى﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ وبعد موته اشتور المؤمنون فولوا عثمان فعمل ما شاء الله بما يعرف أهل الاسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الارض ما شاء الله · ثم أحدث أمورا لم يعمل بها صاحباه قبله وعهد الناس بنبيهم حديث فلما رأى المؤمنون ما أحدث أتوه فكلموه وذكروه بكتاب الله وسنة من كان قبله من المؤمنين فشق عليه أن ذكروه بآيات الله وأخذهم بالجبروت وضرب منهم من شاء وسجن ونفى · وكتبت الي يا عبد الملك طالبا ان اكتب اليك بجواب كتابك واجتهد لك في النصيحة واني أبين لك ان كنت تعلم فضل ما كتبت اليك به ، وذكرتني بالله أن أبين لك فاني قد بينت لك بجهد نفسي وأخبرتك خبر الأمة وكان حقا علي أن أنصح لك لما قد علمت أن الله

يقول﴿ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ · فان الله لم يتخذني عبدا لاكفر به ولا أن أخادع الناس بشيء ليس في نفسي وأخالف الى ما أنهى عنه · أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولتحلوا حلاله ولتحرموا حرامه ولترضوا بحكمه وتتوبوا الى ربكم وتراجعوا كتاب الله · وأدعوكم الى كتاب الله ليحكم بيني وبينكم في الذي اختلفنا فيه ويحرم ما حرم الله ونقسم بما قسم الله ونحكم بما حكم الله ونبرأ ممن برأ الله ورسوله ونتولى من يتولاه الله ونطيع من أحل لنا طاعته في كتابه ونعصي من أمر الله بمعصيته فهذا الذي أدركنا عليه نبينا عليه السلام وان هذه الأمة لم تسفك دما الا حين تركوا كتاب ربهم الذي أمرهم أن يعتصموا به وأنهم لا يزالون متفرقين مختلفين حتى يراجعوا كتاب الله وسنة نبيه ويحكموه فيما اختلفوا فيه فان الله يقول﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب﴾ · وأن هذا هو السبيل الواضح وهو الذي هدى الله به من كان قبلنا محمدا ﷺ والخليفتين الصالحين من بعده فلا يضل من اتبعه ولا يهتدي من تركه قال الله﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ · فاحذر أن تفرق بك السبيل عن سبيله وتزين لك الضلالة باتباعك هواك فيما جمعت اليه الرجال فانهم لن يغنوا عنك من الله شيئا انما هي الاهواء وانما يتبع الناس امامين امام هدى وامام ضلالة · أما امام الهدى فهو الذي يحكم بما أنزل الله ويقسم بقسمه ويتبع كتاب الله وهم الذين قال الله فيهم﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانو بآياتنا يوقنون﴾ · وهؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم · وأما امام الضلالة فهو الذي يحكم بغير ما أنزل الله ويقسم بغير ما قسم الله ويتبع هواه بغير سنة من

الله فذلك كفر كما سمى الله ونهى عن طاعتهم وأمر بجهادهم كما قال ﴿ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ · فانه حق أنزلهـــا بالحق وليس بعد الحق الا الضلال · ولا تضر بن الذكر عنك صفحا ولا تشكن في كتاب الله ولا حول ولا قوة الا بالله فان من لم ينفعـــه كتاب الله لم ينفعه غيره · كتبت الي أن أكتب اليك بمرجوع كتابك فانني قد كتبت اليك وأنا أذكرك بالله العظيم أن تقرأ كتابي بتدبـــر وأنت فارغ · ثم اكتب الي ان استطعت بجواب كتابي انزع عليه بينة من كتاب الله أصدق به قولك ولا تعرض لي بالدنيا فانه لا رغبة لـــي فيها وليست من حاجتي ولكن لتكن نصيحتك لي في الدين ولما بعـــد الموت فان ذلك أفضل النصيحة والله قادر أن يجمع بيني وبينك على الطاعة فانه لا خير لمن لم يكن على طاعـــة الله وبالله التوفيق ومنه الرضا والسلام عليك والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمـــا ·

التعليق على الجـواب

ان المتأمل في هذه الرسالة أو الرسائل المتبادلة بين عبد الملك بن مروان وبين الامام عبد الله بن اباض يتبين له جليا ما لابن مروان من الباع الطويل وبعد النظر في سياسة الملك والمقدرة على توطيـــد أركانه وتشييد دعائمه ، فهو يريد فوق ذلك أن يلبس ملكه ثوبا مـــن الخلافة الصحيحة المؤيدة بموافقة أيمة الدين وذوي الرأي النافـذ في الأمة وفي مقدمتهم الامام ابن أباض الذي مع سلوكه الشدة معه لم ينقل الينا أن تعمد الى البطش به ويامـــا أكثر من بطش بهـــم مباشرة وبواسطة ، فالامر اذا لا يخلو اما لانه سلم بصحة نصيحة الامام وأذعن لقوة دينه ويقينه ولكن حال دون العمل بها فساد المحيط وتمكن حب الملـــك ولذة السلطان من نفسه مع ما للبطانة والقرابة بحكم العادة من اليد القوية في الحيلولة بينه وبين ما يهم به مـــن قبول النصيحة في الدين والرجوع الى مـــا عليه السلف الصالح ، ويحتمل أن يكون ذلك للخوف من باس ابن اباض وعشيرته فيما اذا

حدثته نفسه شرا · ويمكن غير ما ذكر من الاحتمالات · ومهما يكن من الأمر فالايمان الراسخ والوثوق الشديد بالله عز وجل والزهد الكامل في هذه الدنيا ونعيمها والصراحة في الحق والاخلاص التام لدين الله كيفما كان الحال ، كل هذه المزايا تتجلى للناظر في شخص ابن اباض من بين سطور كتابه الى ابن مروان · فرحم الله ابن اباض ورحم الله أولئك الصالحين من عباده الذين لا تأنف نفس الواحد منهم أن يقول ما قاله الصديق « وأطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيت فلا طاعة لي عليكم » أو ما قاله الفاروق « أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه » ·

الامام أبو الشعثاء جابر بن زيد

من أعظم رجال المذهب الاباضي وأيمته الامام المجتهد أبو الشعثاء جابر بن زيد الازدي العماني المولود عام ١٨ هـ (الموافق ٦٢٨ م) بقرية قريبة من مدينة نزوى عاصمة المملكة العمانية المتوفى سنة ٩٣ هـ (٧١١ م) بالبصرة · نشأ أولا بعمان ثم ارتحل الى البصرة لاجل طلب العلم فأقام بها الى أن مات فنسب اليها · وكان أعلم أهل زمانه وأحفظهم للحديث النبوي وأتقاهم لله عز وجل · أخذ العلم عن كثير من الصحابة ومما قاله عن نفسه في هذا المعنى تحدثا بنعمة الله عليه : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت ما عندهم من العلم الا البحر الزاخر يعني سيدنا عبد الله بن عباس جد العباسيين وابن عم رسول الله ﷺ · وكما أخذ جابر عن ابن عم الرسول فكذلك أخذ عن أشهر أزواجه السيدة عائشة ابنة الصديق رضي الله عنهما · وفي التنويه بغزارة علمه قال ابن عباس اسألوا جابر بن زيد فلو سأله من بالمشرق والغرب لوسعهم علمه · ولما مات جابر قال أنس بن مالك خادم رسول الله مات اليوم أعلم من في الأرض · وقال قتادة اليوم مات عالم العرب · وقال اياس بن معاوية رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد ، مع كثرة من فيها يومئذ من الفقهاء الاجلاء كالحسن البصري وسعيد بن

المسيب وثابت البناني وغيرهم · ومن المأثور انه لما قربت وفاته تمنى رؤية الحسن البصري فجاءه الحسن مسرعا هو وثابت فسأله جابر بقوله أخبرني يا أبا سعيد عن حديث ترويه عن رسول الله ﷺ في المؤمن اذا حضرته الوفاة ، قال قال رسول الله ﷺ ان المؤمن اذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا · فقال جابر الله أكبر انـي أجد على كبدي بردا ثم قبض عليه رحمة الله ورضوانـه وكان هذا الامام أيضا كثير المناظرة للخوارج المارقين وله تأليف في الفقـه كبير يسمى ديوان جابر انتفع الناس به في حياته وبعد مماته وكان محفوظا في مكتبة بغداد ثم أخذ منها وأحرق أو أغرق ولنقتصر على هذه النبذة من تاريخ حياته الحافلة بجلائل الأعمال إذ التبسط فيها يستدعي التطويـل ·

هذا ولا ندري السبب في عدم نسبة المذهب اليه مع أنه أفقه وأعلم زمانه وقد قيل ان ابن اباض يصدر في كل شؤونه عن فتواه ولا يبت في أمر من الأمور الا بمشورته ورضاه · والحديث عنه يطول جدا ·

الامام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وغيره من الأئمة مع جملة استطرادية شيقة

من أشهر أئمة المذهب الامام الجليل التابعي المشهور أبو عبيدة مسلم وهو ممن أخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبدي وجعفر ابن السماك من التابعين · أما الصحابة فقد أدرك جل من أخذ عنهم الإمام جابر واستقى من مناهلهم العذبة رضي الله عنهم وعنه · وقد أخذ عنه وعن ضمام بن السائب كثير من معاصريهما المشهوريـن أذكر منهم الأئمة الفحول سلمة بن سعد وأبا سفيـان محبوب بن الرحيل وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأبا حمزة المختار بن عوف وأبا يزيد الخوارزمي والجلندي بن مسعود وأبا الحر الحصيـن والخيار بن سالم والإمام الفحل الربيع بن حبيب صاحب المسنـد

المعدود بأنه أقدم تأليف في علم الحديث وأيوب بن وائل الحضرمي وغير هؤلاء كثير جدا من الأعلام المتكفل بذكر أكثرهم سير العلامة ضياء الدين أحمد الشماخي وفيهم من خراسان ومصر وغيرهما من الأقطار التي انتشر فيها أتباعهم ومدت رواقها دعوتهم · ولكن اليد السياسية قضت على هذه الدعوة ومحت وجودها من أغلب الأقطار الاسلامية ، نظرا لشدة تمسك أهلها بقواعد الدين الصحيحة والمضي في سبيلها بدون محاباة ولا خضوع الى قوات المتغلبين بالرغم عن خطب ودهم المتكرر جيلا بعد جيل ومحاولة ارضائهم المرة بعد المرة ظنا من هؤلاء الملوك أن حركة أولئك المؤمنين الصادقين ربما كانت لطلب الدنيا والجاه لا للمطالبة بتطبيق أحكام الله من عدل وشورى واقامة لشعائر دينه القويم · وهو حق الله والأمة اغتصبه المتغلبون الظالمون وتصرفوا فيه تصرفا لم يراقبوا فيه إلا ما تهواه أنفسهم · ولا تطرف في طلبهم ولا غلو مطلقا وما دين الإسلام وأحكامه إلا وسط بين الإفراط والتفريط ولا كانت تكاليفه الا تخفيفا من الأثقال التي كانت تحملها أمم قبلنا حيث كان من ضمن ما يوجبه عليهم دينهم اخراج ربع المال في الزكاة وقرض موضع النجاسة وقتل النفس في التوبة وخمسين صلاة في اليوم والليلة وغير ذلك مما لا يطاق حمله من الشدائد والأهوال · ولكن النفوس البشرية إذا ألقى لها الحبل على الغارب عدت كل ما خالف هواها تطرفا في المبدأ وغلوا في الدين فلا يطربها إلا معان في ملاذ هذه الفانية بجميع ما فيها من الموبقات المهلكة المكتسحة لما سيبقى في النفوس من الدين والأخلاق لا سيما أولئك الجبابرة الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا فعمدوا الى حمل من يذعن اليهم من الفقهاء على تأويل كل ما يخالف أهواءهم وتهوين ما لا يقبل التأويل مما ينتهكونه من محارم الله · وقد آن لي أن أقول ان من ينعم النظر ويتعمق في البحث ويقارن بين أصول المذاهب الإسلامية وقواعدها العامة لا يلبث أن يسلم بأن هذا المذهب هو أكثر المذاهب انطباقا على الكتاب والسنة وأبعدها عن التأثر بالشخصيات في مبادئه العامة ايمانا وعملا ويجده

أيضا أطهرها من المبتدعات المنكرة مما يأتيه شيوخ الطرق الموجودة في غيره من المذاهب والتي لا أصل لوجودها فيه من لدن امامه الأول الى يومنا هذا ٠

أباضية اليوم وأين يوجدون ؟

ان أباضية اليوم بالجبل وزواره وجربة ليسوا كأسلافهم في قليل ولا كثير من التطبيق العلمي لتعاليم الدين فهم الآن كسائر أتباع المذاهب الاخرى سواء بسواء لا يمتازون عنهم بشيء إلا في النادر القليل ٠ أما أهل ميزاب وعمان فانهم ما زالوا في القيام بشئون الدين على ما يرضي الله ورسوله ٠ وقد قلنا فيما تقدم ان اليد السياسية قضت على وجودهم في أغلب الآقطار فلزم حينئذ أن نبين البقية الباقية وأين مأواها فنقول : يوجد أغلبهم في القطر العماني الواقع على بحر العرب وخليج فارس من شرق الجزيرة العربية حيث لا يقل عددهم هناك عن ثلاثة ملايين ، فهم بعمان أغلبية ساحقة ولهم بها امام عادل يعين بالشورى ويحكم بينهم بالكتاب والسنة ، وأكثر نواحي القطر تحت حكمه العادل إلا مسقطاً وبعض الجهات الساحلية فانها خاضعة لآمير يلقب بالسلطان وهو أباضي أيضا إلا أنه مشمول بالحماية البريطانية وبينه وبين الإمام اتفاقات وهو كالتابع له من الوجهة الدينية ٠ ويوجد نحو ربع مليون من الاباضية بجزائر إفريقيا الشرقية البريطانية التي كانت ولا تزال إلى وقت غير بعيد من مستعمرات عمان ولا يزال سلطان زنجبار (قاعدة) هذه الجزر أباضيا يتولاها هو وآباؤه بالوراثة السياسية وهم وسلاطين مسقط من أسرة واحدة ٠ ويوجد منهم بشرق افريقيا البريطاني (الالماني سابقاً) عدد عديد لا ندري بالضبط ولا بالتقريب كميته وان كنا نجهل أن سكان هذا الاقليم يزيدون على العشرة ملايين ٠ وكان حاكم عاصمته (دار السلام) في العهد الالماني أباضيا ٠ وهذا يدل على كثرتهم وقوة نفوذهم هناك ٠ على أن هذه

المستعمرة الكبرى كانت أيضا من مستعمرات عمان كما سيأتي بيانه عند الكلام على انتشار المذهب بالمشرق . ويوجد منهم في افريقيا الشمالية بجبل نفوسة وزوارة من طرابلس وجزيرة جربة من تونس ووادي ميزاب بالجزائر ما يربو عددهم عن المائتي ألف . وأخيرا بلغنا أنه توجد جمهورية صغيرة ببلاد القوقاز أهالها أباضية ولا ندري عددهم وما كان لنا بهم من علم الا منذ خمس سنوات أو أقل .

انتشار مذهب الأباضية وتاريخ ظهوره بالمغرب

لا يوجد في المستندات ما يدل دلالة واضحة على تاريخ انتشار هذا المذهب في الشمال الافريقي بالضبط ، وإنما لنا أن نجزم بأنه في عهد مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية كان مذهب الأباضية بطرابلس قويا منتشرا ، ومما يدل على ذلك أن الحارث وعبد الجبار زعيمي الأباضية كان قد حدث بينهما وبين عامل طرابلس من قبل بني أمية خلاف أدى الى نشوب الحرب بين الفريقين كانت الدائرة فيها على العامل فانتزعا منه طرابلس وملكاها حينا من الدهر وحكماها بعدل ، الى أن وجدا قتيلين وسلاح كل منهما في الآخر ، والظاهر أن عبد الجبار هو الامام والحارث وزيره أو قاضيه وهما أخوان لأم أو ابنا خالة وقبيلتهما هوارة . وفي رواية لغير أصحابنا أن القاتل لأولهما هو عبد الرحمن بن حبيب عامل القيروان الاموي وذلك سنة ١٣١ هـ (٧١٨ م) وقيل سنة ١٣٢ هـ ثم لم يلبث الأمر غير يسير من الزمن حتى عاد النفوذ الى الاباضية بصورة أوسع وأقوى مما كان في زمنهما . وذلك باستيلاء أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح اليمني .

امامة أبي الخطاب عبد الأعلى

في سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) بايعه الاباضيون خارج مدينة طرابلس على أن يحكم بينهم بما أنزل الله وبسنة رسول الله ، ثم دخل

المدينة بلا حرب ودانت له البلاد طائعة مختارة لما شاع عنه وذاع من الرفق بالرعية والعدل في الحكم بين الناس فعظم شأنه فيهم وامتد سلطانه شرقا الى برقة وغربا الى القيروان وجنوبا الى فزان . وكان منصورا في جميع حروبه كالتي دارت رحاها لتطهير البلاد من أدران الفوضى والفساد مثل قمعه لورفجومة القبيلة الجسيمة التي أخذت القيروان من عامل الامويين وأسرف رجالها في البلد بالظلم والقتل والسلب والنهب وانتهاك الحرمات والاعراض تحت سمع وبصر زعيمهم عاصم بن جميل وما تركوا منكرا الا أتوه ولم يسلم من فسادهم حتى المسجد الجامع فأدخلوا دوابهم فيه فلم يسع هذا الامام العظيم إلا الاجابة لنداء أهل القيروان واستغاثاتهم المهيجة الى جهاد هؤلاء المفسدين في الارض فأسرع الى القضاء على فسادهم وأراح الناس من عتوهم فاطمأنوا على أموالهم وأعراضهم وسكن روعهم ثم عين واليا عليهم عبد الرحمن بن رستم وعاد الى طرابلس مقر امامته وهكذا كان النصر حليفه مرارا في حروبه على الحدود الشرقية لرد هجمات العباسيين المتكررة وقد بلغ عدد القتلى من جيوش بني العباس في إحدى الوقائع التي هزمهم فيها أبو الخطاب ستة عشر ألفا ولم يخنه الحظ إلا في التي مات فيها رحمه الله بتاورغا سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) وعدد الموتى من رجاله اثنا عشر ألفا أو يزيدون ، وسبب الهزيمة مبسوط في المطولات (١) .

---

(١) قد ذكروا فيما ذكروه من اسباب الهزيمة ان محمد بن العباس الاشعث قائد الحملة العباسية بعد ان هزمه ابو الخطاب تظاهر بان الهزيمة كانت ساحقة وانه من العبث ان يعيد الكرة على ابي الخطاب وانصاره فابتعد عن مكان الواقعة بمراحل عديدة ، وفي الوقت نفسه خلف عيونا ترعى حركات جيوش ابي الخطاب التي يقال انها تفرقت لحصاد الزرع واستبعادا لرجوع ابي الاشعث وجنوده . وقد حذر ابو الخطاب اصحابه من سوء عاقبة التخاذل والامن من مكر ابي الاشعث ولكنهم ابوا من قبول رايه حرصا على جمع حبوبهم . فصح ما تنبأ به اذ عاد حالا ابن الاشعث بجيوشه مغتنما فرصة تفرق اتباع ابي الخطاب طاويا مراحل كثيرة في يوم أو يومين ففاجا الخطابيين على غير استعداد منهم واشتبك معهم في تاورغا . واقتتلوا قتالا شديدا دام اياما عديدة انتهى بهزيمة ابي الخطاب وحضور اجله واجل الذي عشر الفا من اصحابه في هذه الوقعة السيئة العواقب عليه وعلى غيره اذ انتشر الذعر في الولايات

وعلى أثر موته فر واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم الى المغرب حيث تلقاه الموافقـــون له بمزيد الاكـــرام والاجلال بعد فترة من الوقت بايعوه بالخلافة وأسسوا مدينة تيهرت التي ســـار بذكرها الركبان وعدها المؤرخون من أعظم عواصم ذلك العصـــر وأكثرها عمرانا وأرقاها وأكثرها يسرا ورخاء وسماها الكثير منهم (عراق المغرب) والبعض (بلخ المغرب) وأطنبوا في مدحها بما يليق بعظمتهـــا ٠

امامة أبي حاتم يعقوب بن حبيب

في سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بايعت الاباضية الامام أبا حاتم يعقوب فشمر عن ساعد الجد وبادر الى قمع المفسدين واخضاع الفوضويين من البربر وساس الأمة بالعدل والاحسان وملك طرابلس في أقرب من لمح البصر ولبث فيها أشهرا ثم توجه الى القيروان فملكها بعـد جهاد طويل وأخرج منها ابن الاشعث واستعمل عليها عبد العزيـز ابن السمح ومنها ســار الى الحدود الشرقية لمواجهـــة الجيوش العباسية ورد حملاتهم فكانت بين الفريقين حروب حامية الوطيـس شديدة الوقع وبعد مد وجزر وكر وفر دارت الدائرة على أبي حاتم فاعتصم بجبال نفوسة مفلول الجيش وقبل أن يستجمع قواه ويسترد نشاطه عاجله العباسيون فالتحم معهم بقليل من بقايا جيشه قريبـا

التي يحكمها واضطرب جبل الأمن فيها جميعا ، وواصل محمد بن الأشعث الزحف على البلاد طـــولا وعرضا حتى وصل العاصمة الكبرى (القيروان) فتنحى عنها عامل ابي الخطاب عبد الرحمن بن رستم عليها وعلى ما حولها الى الحدود الطرابلسية فارا بنفسه الى المغرب الاوسط حيث اسس به الدولـــة الرستمية الاباضية واتخذ تيهرت قاعدة لها ومن بعده تولاها ابناؤه بالانتخاب الشرعي واستبحرت في العمران والمدنية الى حد كبير كما سياتي الحديث عنها ٠

ومما يذكر أن واقعة تاورغا التي انتصر فيهـــا العباسيون كان بعض اتباعهم يفاخـــرون بها الخطابيين : فيقولون لهم ما تفسير (تاورغا) فيجيبونهم بان تفسيرها « مغمداس التي قتل فيها منكم اربعة اكداس كل كدس فيه اربعة آلاف راس » والله يعلم انها فتنة اسلامية كانت كالليل المظلم لو لـــم يمتحـــن المسلمون بامثالها لما تاخر الاسلام بعد التقدم وانحط بعد الارتقـــاء وأصبح بعد السيـــادة على العالم مقطع الاوصال محكوما لغيره ممن كانوا تحت سيطرته ولله الأمر ٠

من ظاهر قلعة وككلة فهزموه وقتل فيمن قتلوه ودفن بالموضع الذي لا يزال معروفا وأقيمت على قبره روضة والناس الى اليوم يتبركون بزيارة ضريحه عليه رحمة الله · وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ (٧٧١ م) على ما قيل ، فتكون مدة امامته سنة واحدة فقط ، والظاهر أن الواقع غير هذا بل الصحيح لا بد وأن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين فكيف يتصور هذا مع أن المؤرخين فضلا عن ذلك ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا كان له النصر فيها حليفا وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الالوف من المشاة وعشرات الالوف من الفرسان · ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها من مكان الى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالامر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائط النقل السريعة فليتأمل ·

حملة العلم الى المغرب

من السابقين الى نشر الدعوة الاباضية سلمة بن سعد وهو الذي شوق بربر المغرب الى شد الرحال والتوجه الى المشرق لتلقي العلوم من الامام أبي عبيدة المتقدم الذكر ، فرحل اليه على هذه النية عاصم السدراتي واسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي وعادوا حاملين لقب حملة العلم الى المغرب يشاركهم في هذا اللقب الشريف أبو الخطاب الذي تولى الامامة على نحو ما تقدم وعبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي صار قاضيا ثم عاملا لأبي الخطاب والذي أسس الخلافة الاباضية بتيهرت كما سيأتي شرحه هنا ·

وأما تراجم هؤلاء وذكر كراماتهم هم وغيرهم من فضلاء الرجال الكثيرين من أهل المذهب فليس من وظيفة هذا المختصر ، فليراجع غيره من المطولات من يهمه الوقوف عليها كسير الشماخي وسير نفوسة القديم فانه يرى ما يبهره ·

خلافة بني رستم بتيهرت

الفترة التي بين فرار الامام عبد الرحمن من القيروان سنة موت امامه وبين تاريخ مبايعته بالخلافة رسميا بتيهرت هي شبيهة بغيرها من الفترات المجهولة الحوادث مثل التي بين حدوث نفس المذهب الاباضي بالمغرب وامتلاك الحارث وعبد الجبار لطرابلس ثم مبايعة أبي الخطاب بنحو تسع سنين ومن بعده مبايعة أبي حاتم بأكثر من ذلك فالظاهر أنه لا يتسنى لاي باحث كائنا من كان أن يظفر بشيء يمكنه من العلم بما وقع في هذه الفترات بوجه مفصل حتى يصل الحوادث بعضها ببعض لتأخذ شكلا مرتبا مضبوطا · هذا ونعود الى تلخيص الخلافة الاباضية بتيهرت آسفين على ما فرط فيه الأوائل أو بالأحرى ما أتلفته الحوادث واستصفته الكوارث ولا حول ولا قوة الا بالله (١) ·

---

(١) ذكر المؤرخون انه كان بتيهرت مركز الامامة مكتبة كبرى تسمى (المعصومة) تحتوي على مئات الآلاف من الكتب في مختلف العلوم اضرم فيها النار السفان الحجاني احد قواد الدولة الفاطمية عند دخوله العاصمة الرستمية · وقد فعل هؤلاء فعلتهم هاته في كل عاصمة احتلوها من عواصم الشمال الافريقي · وبمدينة شروس توجد مكتبة كبرى ايضا تحمل اسم (المكتبة النفوسية) بها ايضا عشرات الالوف من الكتب العلمية النفيسة · وقد سمعت بانني عند زيارتنا لآثار وانقاض هذه المدينة من خالنا المرحوم العلامة سليمان باشا الباروني المجاهد الاسلامي الشهير بانه يوجد فيما مضى بهذه المكتبة نحو ثلاثين الف مجلد في فن واحد كان احد العلماء الاعلام تفرغ لها مدة طويلة للبحث عن مسالة اشكلت عليه فظفر بها من بين صفحات بهذه الآلاف المجلدة التي طالعها كلها ولم يستفد منها جديدا سوى خمس مسائل · قال عنها انه يمكنه ان يتعرف الحكم الشرعي فيها اجتهادا ولو لم يجدها مدونة · وكان القضاء عليها وعلى مكتبة مدينة جادو الشهيرة على يد بني سليم وهلال في غاراتهم الشعواء على الشمال الافريقي باغراء وتشجيع الفاطميين انتقاما منهم من النفوسيين الذين أبوا الخضوع لسلطانهم الى ما بعد هذه الغارة ، وانتقاما من بني باديس امراء تونس وموريطانيا اذ خلعوا طاعتهم واستبدلوها بطاعة العباسيين تفضيلا وايثارا لهم على الفاطميين الشيعة ·

الامـام عبـد الرحمن

هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سام بن كسرى انو شروان المالك الفارسي المشهور على ما قاله غير واحد · تقدم أنه لما سمع بانكسار أبي الخطاب وموته هرب من القيروان الى المغرب ويقال ان عبد الرحمن لما خرج هاربا من القيـــروان لم يصحبه الا ابنـــه عبد الوهاب ومملوك له وساروا في طريقهم يتناوب الابن والعبـد حمل ذات الشيخ أو متاعه الى أن وصلوا جبلا يسمى (سو فجج) والظاهر أنه كان عامرا بالاباضية أو كانوا قريبين منه وكان جبـلا منيعا صعب المرتقى فاعتصموا به مرتقبين لحوق جيش أبي الاشعث، فكان ما توقعوا وجاءهم بجيش كثيف طوق به الجبل من جوانبـــه وظل محاصرا اياهم مدة من الزمن فلم يحصل على شيء فعاد بخفي حنين بعد أن فقد مئات من رجاله بفعل الحمى وغيرهـــا قائلا ان سو فجج لا يدخله الا دارع ومدجج · ثم ان عبد الرحمن ومن التف حوله من الوجـــوه والاعيان قرروا الرحيـــل الى المغرب الأوسط (الجزائر) حيث ألقى العصا بين جموع الاباضية من نفوسة وهوارة ومزاتة وغيرها فاختاروا لتأسيس المدينة موضعا تكتنف أطرافـه القبائل المذكورة وكان غابة تقطنها السباع والوحوش فخرجت منها باذن الله تحمل أولادها في أفواهها فبنوا به (تيهرت) الفيحاء دار العدل والمدنية والعلم والعمران فيما بعد (١) ·

مبايعة الامـام عبد الرحمن بالخلافة

في سنة ١٦٠ هـ (الموافق لسنة ٧٧٦ م) بويع الامام عبد الرحمن

---

(١) في رواية تاريخية ان عبد الرحمن واصحابه لما اعتزموا بناء مدينة تيهرت بهذا المكـــان المغطى بغابة كثيفة كانت ماوى للوحوش ، كلف احدهم بان ينادي باعلى صوتـــه ثلاث مرات في ثلاثة ايام : ايتها الوحش انا نريد ان نعمر هذا المكان فمن يريد السلامة فليخرج منه : وعلى اثر هذا النداء شاهدوا السباع والوحش تحمل اشبالها في افواهها · خارجة من الغابة · قلت : قد وقع مثل هـــذا للصحابة والتابعين عندما ارادوا تاسيس مدينة القيروان كما هو معلوم ، ويعد هذا عند المسلمين كرامة للامة ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام ·

ابن رستم بالخلافة فتولاها بما عهد فيه وعرف به من الهمة والنشاط والصبر على الشدائد والزهد في الدنيا والحكم بالكتاب والسنة ، فأقام الحدود وبالغ في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر كما هو شأن الأئمة العادلين أولي الاستقامة في الدين والاخلاص للامة فانتشر عدله وعم الرعية فضله وذاع في الآفاق صيته بما شمل المملكة من الامن والعدل ، فتوافد الناس من كل حدب وسهل الى الاحتماء بحماه والسكنى ببلد زانه عدله وأمنه وهما ضالة كل انسان يطلب الحياة الهينة في هذه الدنيا · ولتأييده على اقامة العدل وتوطيد الامامة وبث الراحة والطمأنينة أرسل اليه المشارقة اعانتين من وافر أموالهم كل منهما في وقت غير الآخر مع رسل أمناء لابلاغهما وللوقوف على الحالة التي عليها الامام من حيث العدل والأمن والدين والاستقامة ، فأما الأولى فقبلها لان الدولة لم تزل في دور التكوين والضعف فهي في حاجة ماسة الى ما يأخذ بناصرها ويقوي دعائمها ، والمال قوام الأعمال · ولا حاجة الى التنبيه بأن قبول الاعانة انما كان بعد استشارة الامام لذوي الرأي من رجاله لأن هذه القاعدة (الشورى) هي أساس الحكم وحجره الأساسي في مذهب الاباضية ، وقد عاد الرسل وألسنتهم تلهج بالثناء على سيرة الامام من جميع نواحيها ··وأما الاعانة الثانية فلم يقبلها واعتذر للرسل الذين جاؤا بها بأنه في غنى عنها نظرا لتوفر الدخل وكثرة الوارد على الخزينة من الأموال الناشئة عن الخصب العام واتساع رقعة العمران ونمو الخيرات · فشق على رسل الشرق أن يردوا المال بعدما لاقوا في سبيله من مشاق وأهوال وعبثا حاولوا اقناع الامام بوجوب قبوله وكلما ألحوا عليه لم يجدهم ذلك لأنه في الواقع لم يأمر برده الا بعد المشورة لأهل الحل والعقد (١) ·

---

(١) ليتهم اشاروا على الامام بقبول الاعانة رحمة بالرسل وتخفيفا عنهم من التعب المنهك الناشيء عن السفر الطويل الشاق الممل كما هو واضح ، وكان عليهم ان يشيروا عليه بصرف الاعانة في مشاريع الدولة ومصالحها العامة كالجيش واصلاح الطرق والمرافق الاجتماعية والملاجيء والمستشفيات وغيرها فابقاء الاعانة لهذه الاغراض النافعة احق واجدر من ردها الى اهلها لما تقدم ولما في الرد من الاخطار

واستمر رحمه الله على ما عليه من زهد في الدنيا وتواضع لله ، سالكا مسلك الخلفاء الراشدين الذين سبقوه في امـــارة المؤمنين بالمشرق أم بالمغرب رحمهم الله الى أن وافاه الأجل المحتوم والناس عنه راضون وعلى امامته متفقون ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ م) ٠

خلافة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن

تولى عبد الوهاب الخلافة على أثر وفاة والده العظيم بالاجماع أو بالاكثرية الساحقة ، وقد رشح أبوه رحمه الله سبعة رجال مـــن مشاهيـــر القـــوم وخيارهـــم وجعلها شـــــورى بينهـــم ومنهـــم هذا الامـــام ومسعـــود الاندلسـي ويزيد بـــن فنديـــن اليفرنـــي وكان هـــذان المرشحـــان فـــي مقدمـة المبايعين له الا أن كلا منهما لصاحبه على طرفي نقيض في سلوكه ٠ وذلك لأن مسعودا أظهر من الوفاء والولاء للامام عبد الوهاب ما لا مزيد عليه لمستزيد مع أن العامة كانت تؤثره حتى على عبد الوهاب نفسه لولا أنه توارى عن الانظار الى أن تحقق أنهم ولوا وجوههـم عنه وهرعوا الى مبايعة عبد الوهاب فبادر الى تقديم البيعة لـــه ووفى وله الفضل ٠ أما ابن فندين فأظهر من الخلاف على الامام بعد البيعة ما به أضحى رأس الناقمين عليه والشهاب الموقد للفتنـــة العظيمة التي اضطر الامام الى قمعها بامتشاق الحسام وخـــوض غمار الحروب الشديدة لاجل اطفائها ٠ ذلك لأن ابن فندين استعان على اضرامها بوسائل دينية استغفل بها فريقا كبيرا من العامـــة واستخفهم اليها فأصبح اطفاؤها ليس بالأمر الهيـــن ، وما توفق

المعترضة لحامليها في طريق عودتهم بها ، فكان الامام وبطانته لم يفكروا في هذه الناحية ، ام تـــرى انهم فكروا فيها وقطعوا بان الأمن مستتب لا خوف على الرسل وأموالهم من قطاع الطرق المحتمـــل وجودهم في كل مكان من الارض مهما كان النظام فيها دقيقا ، وعلى كل حال فان الراجح ان امر الامام باعادة الاعانة الى مرسليها مبني على جزمه باستغناء بيت المال عنها وبوثوقه بامن الطريق وسلامتـه وحولها اليهم وهذا عينه يعطينا فكرة واضحة عن رقي المجتمع الاسلامي وتوطد النظام في حكومات ذلك العصر السعيد مما لم يصل الى بعضه عصرنا هذا ٠

الامام الى القضاء عليها الا بعد سفك دماء غزيرة ، وكان عـــدد ضحايا هذه الفتنة لا يقل عن عشرين ألفا من الطرفين من بينهم رأس الفتنة يزيد بن فندين ٠

سبب خلاف ابن فندين وموافقة شعيب

السبب الوحيد الرئيسي لفتنته وخلافه هو حب الرئاسة والتوظيف في مناصب الدولة ، الا أنه في الظاهر جعل وسيلة أخرى لاثـــارة الفتنة والتلبيس على من اتبعه وهي المطالبة باقامة هيئة استشارية لا يصدر الامام في أمر من الامور الا عن رأيها ثم تدرج واستدرج من وافقه الى انكار امامة الامام عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم منه فاستصوب رأيه من استصوب وسفهه الاكثرون وأدى ذلك الى استفتاء الفريقين أحد الامامين الربيع بـن حبيب أو أبي عبيدة مسلم ومن بالمشرق من أكابر الاباضية وفقهائهم ومنهم شعيب المصري فجاء الرد بموافقة ما عليه الجمهور مـــن تصويب الامام وتخطئة ابن فندين وشيعته ، الا شعيبا فانه بعد أن وافق الجمهور في صحة الامام ووجوب طاعته عاد في رأيه ونكص على عقبيه وحدثته أفكاره باغتنام فرصة الافتراق لترشيح نفســه الى مقام الامامة بتيهرت فرحل اليها مسرعا بالرغم عن نهي رجالات مصر الاباضيين ، وطوى تلك المسافات الشاسعة على ما قيل فـي عشرين مرحلة مواصلا الليل بالنهار فاجتمع بالامام ثم بابن فندين وأيده فيما تمسك به وصار تابعا له غير متبوع ، وأخيرا قضـــى الامام علـــى الفتنة وعاد شعيب الى وطنه يحمل من اثم الفتنـــة ووزر الطعن في الامام العادل ٠ وابن فنديـــن هذا هو رأس الفرقة النكارية من الاباضية ويسمون مستاوة وقد سموا بالنكار لأنهـــم أنكروا امامة الامام عبد الوهاب وأكبر فقهائهم عبد الله بن يزيد ، وأما الذين أيدوا عبد الوهاب وصوبوا امامته فسموا وهبيـــــة (الصواب أن يسموا وهابية) وهم جمهور اباضية المغرب ٠

خروج خلف بن السمح ابن الامام أبي الخطاب وسببه

وممن خالف الامام عبد الوهـــاب خلف بن السمح · كان والده السمح وزيرا للامام ثم واليا عاما له على جبال نفوسة وما يليهـا الى ضواحي طرابلس وقابس · وكان في طاعة الامام ورضاه الى أن مات رحمه الله ، فتسارع كثير من العامة الى مبايعة ابنه خلـف وأيدهم في ذلك بعض الاعيان بنية الاستقلال عن الامامة العظمـى بحجة أنهم مفصولون عنها بمخالفيهم وأنهم في قـــوة تغنيهم عن التبعية لها · وبعد أخذ الرسائل وردها بين الامام وبين وجهـــاء الجبل وصلحائه صمم الامام على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل · فشبت بين خلف الثائر وولاة الامام حروب طويلة · وقـد ثبت هو وأتباعه على عصيانهم بالرغم من تخطئة من استفتوه مـن أئمة المشرق فيما أتاه من مخالفة متبوعه الشرعي الامام ، وكانت الحرب سجالا بينه وبين الولاة أيـــوب بن العباس وأبي عبيـــدة عبد الحميد الجناوني الذي جدد له الولاية الامام أفلح حينما تولى الخلافة بعد أبيه والذي تمكن بعد ذلك من قهر خلف في موقعة هـــي من الغرابة بمكان لأن جيش خلف يقدر بنحو أربعين ألفا وأما جيش أبي عبيدة فلا يتجاوز عدده ٣١٣ على رواية أو سبعمائة على رواية أخرى وتاريخ الموقعة سنة ٢٢١ هـ (٨٣٥ م) ومن بعدها أخذ أمر خلف في الضعف والادبار · ولكن القضاء على ثورته لم يتم نهائيا الا على يد العباس بن أيوب الذي تولى حكم الجبل بعهد من الامـــام أفلح بعد وفاة أبي عبيدة فتعقب خلفا وشتت شمل من بقي مـــن أصحابه فتفرقوا أيدي سبا ومات بعد جهاد عنيف في سبيل أمنيته وفر ابنه الى جزيرة جربة واليه تنسب الخلفية · ومن تأمل في أمره وأمر أتباعه يظهر له أن خلافهم كخلاف ابن فندين ليس دينيـــا بل هو سياسي محض لا يخرجهم عن الاباضية في الاعتقاد شـــيء ، وفي زمن هذا الامام خرجت عن طاعته الواصلية وبعض قبائل من البربر في الولايات القريبة من تيهرت فأخضعها وعادت الى الطاعـــــة والانقياد وساد الأمن وعم الرخاء وعظمت الثروة الى حد بعيد ·

أشهر المثرين في زمن هـذا الامـام

يظهر أن الثروة بلغت شأوا بعيدا جريا على سنن تقدم البلاد في المدنيـة والعمران بسبب الأمن والعدل والحريـة · وللاستدلال على نموها العظيم في الأوساط الأهلية الرستمية على عهـده نذكر أن يبيب بني زلغين المزاتي كان يملك من صنف الابل ثلاثين ألفا ومـن الغنم ثلثمائة ألف ومن الحمير ١٢ ألفا · ولا شك أن ما ذكروه مـن هذه الاصناف هو بعض من ثروته العظيمة وقد قال الامام في هذا المعنى لولاي ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لخرب بيت مـال المسلمين ، أنا بالذهب ومحمد بالحرث ويبيب بالانعام · وقول الامام لخرب بيت المال ليس له مفهوم ، وانما المراد منه امتياز هـؤلاء الثلاثة بالثروة الطائلة وتفوقهم الهائـل على غيرهم · ومن هذا القبيل قولـه : ما أقيم هذا الدين الا بسيوف نفوسة وأموال مزاته ·

ولنقتصر من أخباره على هذا القدر · ومن أراد الوقوف علـى أحواله ومن اشتهر من رجال السيف والقلـم والعلم والأدب في عصره بوجه مفصل فعليه أن يطلبها من المطـولات : كالأزهار ، والسير وغيرهما من كتب الموافقين والمخالفين المنصفين ، وقـد توفاه الله عليه الرحمة والرضوان في سنة ١٩٠ هـ (٨٠٥ م) وعلى أثر وفاته تولى الخلافة ابنه أفلح ·

خلافـة الامـام أفلح بن عبد الوهاب

بويع بالخلافة بعد موت والده المرحوم وسار في العدل والاحسان سيرته وعني ببسط الأمن في البلاد واهتم بترقيتها وسعادتهـا الاهتمام كله فتقدمت تقدما سريعا وفي عهده وصلت الدولـة الى أوج عظمتها وبلغت في السـؤدد منتهى العز والترف · فقد ابتنـى الاغنياء القصور الضخمة واتخذوا الضياع الواسعة واستكثروا من العبيد والحشم واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما الى حد ان

بعض التجار كان يملك سوقا قائمة بنفسها وعلى عهده كثر المسافرون الى السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب التبر وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتخاذه حليا · وبقي سلطان هذا الامام ممتدا الى حيث الحدود التي وصلته المملكة على عهد والده ولـــم يخالفه بتيهرت أحد في أمر ونهي بسبب ما مهد له والده وبما أقامه هو من عدل ورأفة واجتهاد في كل ما يعود على الأمـــة بالسعادة والرفاهية مع ما اتصف به من أخلاق عالية وعلم واسع وصـــدر رحب ومحافظة على الدين والحكم بالكتاب والسنة والقيام بالامـر بالمعروف والنهي عن المنكر الى غير ذلك من الشعائر الاسلاميـــة الواجب صيانتها · وقد استمر بالجبل خلاف ابن السمح الى عهده ، وقد تقدم أنه قضى عليه نهائيا عامله العباس بن أيوب رحمه الله ·

خـلافة نفات بن نصـر

ان فرجا النفوسي المعروف بنفات بن نصر قد أظهر مخالفة الامام أفلح لعين السبب الذي خالف به ابن فندين وابن السمح وهو الطمع في الوظائف الحكومية ، وذلك أن الامام عين سعد بن أبي يونـــس وسنيم التمزيني عاملا على قنطرارة (يتجى) وأما نفات فلم يعينـه في شيء مع أنه كان رفيقا لسعد في طلب العلم بتيهرت وكان يعتقد في نفسه أنه أعلم منه وأقدر على ادارة الشؤون · فغاظه من الامام هذا التصرف وأثار في نفسه الحقد والغيرة تفضيله سعدا عليـــه فانتحل مسائل لنفسه واتخذها مطية لخلافه الطائش · فمنها انكاره الخطبة في الجمعة مدعيا انها بدعة وضلال ، ومنها انكاره استعمال الامام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ، ومنها قوله ابن الاخ الشقيق أحق بالميراث من الاخ للاب · ومنها قوله ان المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله اذا باعه لاجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته · ومنها قوله أن الفقد لا يتحقق الا فيمن تجاوز البحر · وقد كان عالما ذكي الفؤاد الا أن قوة الحكومة ومكانة الامام في الامـــة

كانتا من أعظم الاسباب في احباط مساعيه وعدم توفقه · فلم يستطع أن يوقد نار الحرب كسلفيه يزيد وخلف · وقد تولى نفس الامـــام نصيحته برسائل طويلة الذيل بليغة التركيب تنطق بعلو كعب الامام في علوم الدين والسياسة والأدب واللغـة يحذره فيها من ســـوء العاقبـة ان لم يتب من ضلاله واضلاله · وأخيرا أنذره على لسان ولاته بانزال صارم العقاب به ان لم يرتدع عن غيه ، فخاف وتوقع شرا ان هو بقي على اصراره فتوجه الى الديار الشرقية ثم قصـد « بغداد » عاصمة بني العباس فما لبث أن حظي لدى حكومتها بسبب حله معضلة استعصت على علماء بغداد وتعذر حلها عليهم وكـــان غزير العلم مفرط الذكاء · وبهذا أيضا تمكن من نسخ ديوان الامام جابر بن زيد الموجود يومئذ بمكتبة بغداد باذن الخليفة العباســـي (ولعله المأمون) فان الامام أفلح يعاصر ستة من خلفائهم مـــن الرشيد الى المتوكل وقد تم له نسخ الديوان في أيام معدودات مع أنه في عشرة أجزاء لكن الخطب سهل فان نفاتا كان من أغنياء الناس فاستأجر عددا من حذاق الخطاطين ويقال ان الجزء العاشر لم يكتبه لان المدة المرخص له فيها قد انتهت وانما استصدر أمرا آخر فـــي المرور عليه سردا فنقله في رأسه حفظا وعاد الى الجبل يحمل معـه هذا الكنز الثمين الا أن خبث نيته وسوء سريرته حملاه على دفـن الكتاب واخفائه قبل أن يصل الوطن اذ علم أن الامام لم ينقص مـن نفوذه بل زادت دولته قوة وملكه توطدا ورسوخا · ولم يظهر لخلاف نفات أثر بعد رجوعه من الشرق وكأنه لما وجد الدولة قوية الجانب هاب الخلاف وجنح الى السكون الى أن مات ، وقيل تاب قبل موته · واليه تُنسب النفاتية يومئذ · أما الآن فلا أثر لوجودهم ولا لغيرهم من النكار والخلفية · وما أطول الكلام على شخص الامام نفســـه المعدود من فحول العلماء والادباء والشعراء فضلا عن كونه ملكـا هماما سياسيا ضليعا ادار الامامة بكياسة ومهارة وعدالة نصف قرن وفي رواية ستين عاما عليه رحمة الله ·

خلافة الامام أبي بكر بن أفلح

ولي الخلافة هذا الامام في سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) وهي السنة التي مات فيها والده العظيم وقد حملوه أعباء الخلافة مع قلة كفاءته لان أخاه أبا اليقظان الذي هو أقدر منه على ادارة شئونها قد توجه الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج فقبض عليه ولاة بني العباس وأرسلوه الى بغداد فأودعوه السجن رفقة أخ الخليفة (الرفيق هو المتوكل) لانه كان مغضوبا عليه من أخيه الواثق الجالس وقتئذ على العرش ، وقد أجرى الواثق على الرفيقين راتبا يوميا قدره ١٢٠ درهما لكل واحد منهما فانعقدت بينهما الصداقة التي كانت السبب في ترك سبيل أبي اليقظان ثم الاذن له في العودة الى بلاده بعدما ارتقى العرش رفيقه بمدة ٠ وقد صح ان الامام أبا بكر لم يحسن الادارة كأسلافه ولا كان دينا عادلا يقظا كآبائه بل انغمس في الترف والنعيم ومال الى السرف والراحة واللهو وأسلم مقاليد الخلافة لصهره محمد بن عرفة أحد الاعيان المحترمين المعدود من أجود الناس يدا وأبهاهم خلقا وخلقا استمال كثيرا من قلوب الرعية فمالوا اليه قلبا وقالبا واستبد على الامام بالامر الى درجة أغاظت البيت المالك وأيقظت الامام فحسن له بعضهم الفتك بابن عرفة فصوبه وتم له ذلك بطريقة سرية ولكنها اكتشفت فأضرم قتله فتنة عظيمة الخطر شديدة البلوى كادت تهلك الحرث والنسل لولا أن تدارك الله الامر بعودة أبي اليقظان من الشرق فبايعوه في الحال وبعد مشاق وأهوال أعاد المياه الى مجاريها والامر الى نصابه ٠

خلافة الامام أبي اليقظان بن محمد أفلح

بويع بالخلافة أبو اليقظان سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) تقريبا قيل بعد موت أخيه أبي بكر وقيل بتسليم منه اليه فكان اماما فحلا وشهما عظيما بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى عادلا عدل الخلفاء الراشدين من قبله مصلحا اصلاح من لا ينسى نصيبه من الدنيا

ولا يغفل عما تتطلبه الحيـــاة الاخرى من الزاد والعمل والتقـــوى والورع · بويع هذا الامام وكانت الاحوال على أشد ما يتصور من الاضطراب والفوضى فقد استحكمت حلقات الفتنة في أغلب أطراف المملكة فمن ابن عرفة الى ابن مسالة الى غيرهما من دعاة الثورة وطلاب الشهرة · لكن عزيمة هذا الرجل العظيم وقوة ارادته وثقته بالله وبنفسه تغلبت على هذه المصائب كلها فشمر عن ساعد الجـد وجيش الجيوش واستنجد بجبال نفوسة فأنجدوه بجيش كثيف ثـم حمل بهم على اتباع ابن عرفة قتيل أخيه حملات صادقة متتابعة الى أن أخضعهم وأخمد فتنتهم ، ثم كر على محمد بن مسالة الاباضـــي الذي استولى على العاصمة (تيهرت) وتحصن فيها فلم يخرجـــه الامام منها الا بعد قتال كبير وجهاد عنيف وحصار دام سبع سنين (وكان ابن مسالة قبل ذلك أميرا مستقلا غير تابع لبني رستم) ولما قهر الامام هؤلاء البغاة وصفا له الجو ولى وجهه نحو الاصـــلاح والتنظيم فمهد الراحة وبسط الامن واتخذ العدل شعارا في جميـع أعماله ولم يغفل حتى عن الجزارين والحمالين فاستعمل عليهم رقباء فان رأوا قصابا نفخ في شاة عاقبوه أو حيوانا حمل فوق طاقتـــه أمروا صاحبه بالتخفيف عليه وهكذا الشأن في كل شيء كنظافـــة الشوارع والازقة وسائر المرافق العامة (١) ·

حرب نفوســة لابن طولــون

من أعاظم رجال الدولة في عهد الامام أبي اليقظان واليه علـى جبل نفوسة وملحقاته البطل الشهير أبو منصور الياس النفوســي

---

(١) عمل الامام ابي اليقظان بمملكته في ذلك العصر السعيد البعيد عنا بما يزيد على الف سنة دليل قاطع على التقدم المدني الباهر ، ويقوم الاوربيون في هذا العصر بممالكهم بما يشبه هذا النظـــام كجمعيات الرفق بالحيوان ـ الا ان عملهم لم يتناول في الغالب الرفق بالانسان العائش في غير اوريـــا واميركا ، فتراهم هناك علنا يؤثرون كلابهم عليه بالاحسان والرفق والعطف الى حد كبير حتى عاتبهـــم الشاعر العربي ذو الحس المرهف بقوله :

جمعيـــة الرفـــق بالسنـــور والديـــك

ماذا عن الرفـــق بالانســـان يلهيـــك

الذي هزم العباس بن طولون هزيمة منكـــــرة . وملخص الواقعة وأسبابها : أن العباس بن أحمد بن طولون في غيبة والده عن مصر حدثته نفسه بامتلاك المغرب فجهز سنـــة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) جيشا يتألف من ٨٠٠ فارس و ١٠٠٠٠ راجل من سودان أبيه يحمل أمتعتهم ٥٠٠٠ بعير وأخذ من بيت مال مصر ٨٠٠ حمل دنانير وقيل ان مبلغ ما حمل من المال هو مليون دينار ومائتا ألف دينار ثم زحف بهـــذه القوة وامتلك ما في طريقه من المدن والقرى وتغلب على جميع مـــا أرسله اليه بنو الاغلب من الجيوش فازداد قوة على قوة بقهره تلك الحملات المتكررة ، ولعل من أكبرهـــا وأهمها واقعة لبدة فقد خصها بالذكر اذ قال متحمسا ونشوة النصر عملت في نفسه عملها :

لله دري اذ أعدو على فرســـي ... الى الهياج ونار الحرب تستعـر
وفي يدي صارم أفري الرءوس به ... في حده الموت لا يبقى ولا يـذر
ان كنت سائلة عني وعن خبرى ... فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون اما ان سألت فما ... فوقى لمفتخر بالجـــود مفتخـر
لو كنت في لبدة شاهدت ذكرى اذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر
اذا لعاينت منـــى مـــا تبـــادره ... عنى الاحاديـث والانباء والخبر

ثم زحف بجيوشه المنتصرة الى أن وصل طرابلس فضرب عليها نطاق الحصار مدة قدرها ٤٣ يوما الى أن تعدى بعض جنوده على حرم البوادي وهم أتباع بني رستم بمقتضى معاهدة عقدت قديما ، فاستغاثوا بأبي منصور وشاركهم في الاستغاثة أهل طرابلـــس فأغاثهم بجحفل جرار ، وقبل زحفه ورد اليه كتاب تهديد من العباس ابن طولون هذا نصه : ان اقبـــل بسمعك وطاعتك والا وطئت بلدك بخيلي ورجلي وأبحت حرمك . فأجابه أبو منصور محقرا له : قـل لهذا الغلام اما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهـادك وها أنا على

أثر رسالتي اليك · فصبحه على الاثر بنفسه في ١٢ ألفا من رجال نفوسة وهزمه شر هزيمة وذهب ابن طولون لا يلوي على شيء وعاد أبو منصور الى الجبل تحفه الكرامة والعزة بدون أن يتلبس هو ورجاله بشيء من الاموال والذخائر التي تركها ابن طولون واستباحها الاعراب ونهبوها وبنو الاغلب وعمالهم سلبوها من الاعراب (١) ·

خلافة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان

بويع هذا الامام سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) يوم وفاة أبيه بالاجماع وكان كأسلافه العظام حسن السيرة مجدا في الاصلاح مؤثرا للعدل محبا للامة رءوفا بها محسنا اليها لا يألو جهدا فيما يعود بالخير عليها ·

أهم ما حدث في زمنه بيعة عمه يعقوب

أشهر من نازعه في الامر عمه يعقوب بن أفلح الذي كان مقيما بزواغة (صبرانة) من نواحي طرابلس وقيامه هذا كان بتشويق من بعض سكان العاصمة « تيهرت » ممن لم يرضهم الامام ببعض المناصب فأعلنوا الثورة على الامام وناجزوه الحرب واستقدموا يعقوب وبايعوه (مع أن بيعة أبي حاتم في أعناقهم) فاشتد الخطب واحتدم القتال من جديد فكانت حربا ضروسا شديدة الوقع كثيرة الضر · دامت نحوا من أربع سنين يتجاذب فيها الطرفان النصر ،

---

(١) هذا منتهى الورع والنزاهة والترفع الرفيع من ابي منصور عن اموال الموحدين الامر الذي قلما تجد له مثيلا في التاريخ · وقد انتقد بعض الأئمة ابا منصور في هذا العمل الصوفي وقالوا انه بصفته اميرا الاجدر به أن يضم هذه الاموال الوافرة الى بيت مال المسلمين ليتقوى به ويصرفه في المصالح العامة كالملاجىء والمصانع والمدارس وشراء الأسلحة وما اليها من مقومات الدولة · وليس من الحزم أن يتركه نهبا للذين لا يعرفون له قيمة · ولا شك انه مال غير منسوب لأفراد معينين من الناس فبيت المال اجدر به واحق ·

وأخيرا انتهت باندحار قوات يعقوب وفوز الامام بحقه وعاد عمه الى زواغة قارعا سن الندم على ما فرط منه في هذه الحركة التي يقال انه تاب منها اذ لم يعرف الا بما يرضي الله والامة قبلها وبعدها، وكان عالما جليلا وأميرا خطيرا واسع الثروة كثير البر ٠

خروج الطيب بن خلف

وفي مدة هذا الامام تحرك الطيب بن خلف في حيز طرابلس والجبل لاثارة الفتنة واقتفاء أثر والده في الخروج عن الطاعة ٠ فعهد الامام بتأديبه والقبض عليه الى أبي منصور الياس الذي جدد له الامام الولاية حين تسلمه مقاليد الامامة فصدع بالامر ووجه الى الطيب جحفلا جرارا فالتجأ بمحاربيه الى زواغه وهي معقل أبيه خلف وأتباعه فقصدها أبو منصور وكلم أهلها في شأن تسليمه فأبوا وخالفوا نصيحة أحد عقلائهم فحاربهم أبو منصور وهزمهم شر هزيمة وقتل منهم بشرا كثيرا ، ولما كانت زواغة على البحر فقد تمكن من لم يذعن الى الطاعة من الفرار الى جزيرة جربة وفي جملتهم الطيب بن خلف فاقتفى أثرهم أبو منصور وحاصر جربة ثم دخلها سلما وقبض على الطيب وأخذه مقيدا الى الجبل وحبسه مدة ثم أخرجه حيث تاب وأخلص النية في الطاعة ٠ فسمي لذلك الطيب ابن الخبيث ابن الطيب (لان جده السمح من أعاظم رجال الدولة الذين اشتهروا بالعدل والفضل) ٠ وفي مدة هذا الامام توفى البطل المنصور الذي لم يهزم له جيش طول حياته أبو منصور الياس المتحدث عنه عليه رحمة الله ورضوانه ٠

واقعة مانو سنة ٢٨٤ هـ (سنة ٨٩٧ م)

بعد وفاة أبي منصور أسند الامام ولايات نفوسة الى أفلح بن العباس الذي فل سيفها البتار على يديه وذلك في واقعة وقعت قريبا من قصر مانو بين نفوسة وبني الاغلب مات فيها من العلماء أربعمائة

ومن العامة اثنا عشر ألفا وسببها وتفصيل ما وقع فيها من فظائع بني الاغلب وتوحشهم المنافي للدين والانسانية تكفل ببيانها المطولات ٠ ومن بعد هذه الواقعة قلت الامدادات التي كانت ترسل من نفوسة الى تيهرت بل انقطعت تماما وأخذت قوتهم في القهقرى رويدا رويدا الى أن وصلوا في الضعف والانحطاط الى ما هم عليه الآن ٠ وكذلك أمر الامامة بتيهرت فانه أخذ في الادبار والانحلال والوهن لان النفوسيين هم عدتها القوية ومادة حياتها الروحية ولله الامر من قبل ومن بعد ٠ وفي أواخر أيام الامام نقم عليه بعض قرابته فقتلوه رحمه الله سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ونصبوا مكانه واحدا منهم وهو أخوه اليقظان بن أبي اليقظان ٠

امارة اليقظان آخر من تولى من بني رستم

بعد قتل الامام المرحوم تولى الامر أخوه اليقظان بن أبي اليقظان وبقي نحوا من سنتين مهدد الجوانب مضطرب الاحوال مقطع الاوصال بعيدا عما من شأنه أن يعيد الدولة الى مجدها بعد أن تمكن الضعف من قلبها النابض وتجمعت اليها أسباب الزوال والانقراض من كل جانب ، وقد استفحل أمر الشيعة وظهر داعيتهم عبيد الله على جميع دول المغرب واماراته فلا مفر من سقوط الدولة الرستمية في قبضتهم أيضا وقد دخل عاصمتها « تيهرت » فعلا أحد أعوانهم أبو عبد الله الحجاني ونهبها وقتل من ظفر به من أسرة بني رستم واستباح أموالهم وقصد المكتبة الكبرى « المعصومة » وأخذ ما فيها من الكتب الرياضية والصناعية والفنية وأحرق ما عدا ذلك كله ومن ثم فقد الاكثر من مؤلفات المذهب والامر لله وحده ٠

حال الاباضية بعد انقراض ملك بني رستم

بعد انقراض ملك بني رستم حدثت حوادث مقطعة لا انتظام لها ولكنها على كل حال تدل على أن الاباضية خصوصا بالجبل النفوسي

ما زالت قوية محترمة الجانب · ومن الشواهد على ذلك أن المعز لدين الله الفاطمي رابع الخلفاء الشيعيين لما فتح مصر قائده جوهر ، صمم على اتخاذها عاصمة لملكه بدل المهدية · فسار اليها سنة ٣٦١ هـ الموافقة سنة ٩٧١م بجحافله مستصحبا كل نفيس من أمواله وذخائره · ولما وصل طرابلس فر منه جمع من عساكره الى جبل نفوسة فطلبهم فلم يقدر عليهم (١) · وقد قص الحكاية جماعة من المؤرخين غير الاباضية ، وقد حاول المعز قبل ذلك أن يعقد صلحا مع أبي خزر الحامي الاباضي على أن يعترف له بالاستقلال فأبى فحاربه · وبعد عناء وجهد قهر جيشه وتغلب على اتباعه فالتجأ أبو خزر الى نفوسة الجبل وأميرهم اذ ذاك زكرياء من أحفاد بني منصور · فهل هذا الا دليل من أقوى الادلة على قوة شوكتهم وانتظام أمورهم والا فكيف يهاجم ملك من أعظم ملوك العالم في عصره ودولته في زهرة شبابها وعنفوان قوتها · اني لست ممن يقول ان التاريخ أهمل ذكرهم كلا كيف يكون هذا والعلم منتشر فيهم رجالا ونساء أكثر من جميع الاقوام المعاصرين لهم والمجاورين لديارهم · ألا ترى الى تلك الواقعة التي مات فيها من علمائهم فقط ٤٠٠ ـ وانما أقول ما هو أقرب منه الى العقل وهو ان التاريخ « وأعني به تاريخ الاباضية » لا بد وأنه دون حوادثهم بانتظام وضبط ولكن النار التي أضرمها في كتبهم المتغلبون هي التي أكلت كل مفيد

---

(١) هذه العبارة هي عين ما عبر به الكاتبون في الموضوع النائب والشماخي والباروني وغيرهم · وهي تدل على ان المعز الفاطمي حارب نفوسه لأجل استرجاع عساكره الفارين فلم يقدر على استرجاعهم بالقوة ولو لم يكن هناك حرب لما عبروا بقولهم (فلم يقدر عليهم) ولكان جواب الطلب المجرد عن استعمال القوة ـ ابوا وامتنعوا من تسليم الجنود الفارين ـ ومن هذا نعلم ان نفوسة يومئذ لم تزل قوية منيعة مستقلة استقلالا تاما · ولم يؤثر في قوتها اقل تاثير انقراض الدولة الرستمية · بل ثبت انها حافظت على استقلالها هذا اكثر من اربعة قرون كما سياتي الكلام على امرائها الذين حكموها بعد انفصالها عن دولة تيهرت الرستمية · وهذه القوة هي التي حمت ابا خزر الحامي اللاجيء اليها عند عجزه عن قتال الفاطميين الذين حاربهم وانتصر عليهم مرارا الى ان هموا بالاعتراف له بالاستقلال لولا تعنته ، وطموحه الواسع الذي جر له الهزيمة والالتجاء الى جبل نفوسة ولسان حاله يقول : خذ الكل ، او اترك الكل ·

منها في هذا الباب وغيره من الفنون والعلوم التي لا بد وأن لهـــم مؤلفات عديدة فيهـــا ٠

فان ما وقع بمكتبة تيهرت عينه وقع بمكتبتي جادو وشروس من مدن نفوسة ٠ والدلائل تدل على أن الجبل قد استقل حالا بعـــد انقراض الامامة من تيهرت واستمر محافظا على استقلاله عـــدة قرون اللهم الا فترات قليلة تنشأ أحيانـــا عن غارات فجائية أو عن اختلافات داخلية يتخذها المتغلب وسيلة الى حكمه الموقت ولكنه حكم لا يدوم الا ريثما يتحد الفرنسيون فيقذفون بالمتغلب خارج حدودهم ٠ والتاريخ لم يذكر عن هذا الاستقلال الا شيئا قليلا من أوصافه وبعضا من أمرائه بدون ضبط في الزمـــان ولا بيان لمدد المتوليـــن وشكل حكوماتهم التي لا بد وأن تكون شورية حسبما هو معروف من قواعد المذهب ٠ وهذا الابهام المستمر يبتدي من انقضاء حكم الرستميين ويشتد غموضا في القرن العاشر الهجري الى ما بعده وهو القرن الذي توفى فيه صاحب السير الشيخ العلامة أحمد بن سعيد الشماخي الذي ذكر في سيره مئات من العلماء الاباضيين ونسائهم الشهيرات في العلم والصلاح وعشرات من الامراء الذين حكموا الجبل ٠ وأتى بشيء كثير من فضائلهم الوافرة وكراماتهم الباهرة ، وأفاض في تمسكهم الشديد بدينهم وخضوعهم التام للحق والعدل وأطنب حقا ، ولكن مع الاسف بدون اضافة الحوادث الى تواريخها والرجال الى زمنهم الذي وجدوا فيه ٠ ولنكتف بذكر بعض الامراء ٠

بعض مشـــاهير امراء نفوســة

منهم أبو عمر ميمون الذي ولي حكم نفوسة وعرف بالعدل وحسن السيرة والشدة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان رحمه الله ورعا عفيفـــا الى حد بعيد ورعا عن قبول الهدايـــا حتى من الاجانب عن حكمه الغرباء عن بلاده ، يحكى أنه قدم اليه بعضهـم شيئا من الهدايا النفيسة ومنها ٤٠٠ دينار فأباها ونأى بجانبه عنها ،

وكانوا أغنياء مثقلين بأموال التجارة السودانية ، وقد مروا بالجبل آمنين على أموالهم فرأوا أن من المروءة أن يقدموا شيئا لاميـــره (ولعلهم اعتادوا ذلك مع غيره) فما كان منه الا أن رد عليهم مـــا قدموه · فلله ما أعمر هذه القلوب بايمان الله والقناعة باليسير من الـــرزق ·

ومنهم أبو الفضل سهل ، فانه تولى أمر نفسة وسار سيـــرة ميمون في العدل والاستقامة ، وقد وقعت له محاربات مع المعتدين على بلاده من العرب وزناته كان النصر فيها حليفه ومنها المحاربـة التي استرجع بها غدامس الى طاعته · وممن حكم نفوسة أبو يحيى زكرياء الارجاني وكان كالمذكورين علما وعملا وورعا وفضلا · وفي مدته ما يشعر بأنه حارب العباسيين المعبر عنهم بالمســـودة (لان شعارهم السواد) وحارب العبيديين « الشيعة » وانه كان امـــام دفاع الخ · وقد ولوه بعد أن عزلوا بدون حدث : أبا عبد الله ابـــن أبي عمرو بن أبي منصور الياس · وبعد موت الارجانـــي ولوا أبا زكرياء بن أبي عبد الله المذكور فأحسن السياسة وعدل في الحكـم وسد الثغور ودام في الامارة طويلا وسادت أيامه السكينة والامـن والراحة ، واليه التجأ أبو خزر لما انكسر في حربه مع المعز الفاطمي وبقي في الحكم مدة تتراوح بين الستين عاما الى السبعين · وكـل هؤلاء الامراء والملوك لا انضباط في تواريخهم وانما السياق يـدل أنهم كانوا كذلك في المائة الرابعة من الهجرة وفي النصف الاول من المائة الخامسة ·

بعض أمراء الاسرة البارونيـة

هؤلاء هم أجدادنا وسلفنا الصالح عليهم رحمة الله · وأول مـن اشتهر منهم أبو هارون بن موسى الباروني أسندت اليه أول الامر المشيخة العامة في عهد الامير أبي زكرياء المتقـــدم ذكره آنفا ثم أسندت اليه بعده الامارة وكان نفوذه شاملا سائر البلاد التابعـــة

للجبل يومئذ الى غدامس وفزان وزلة جنوبا والى سرت وغيرهـــا شرقا والى جبل دمر (من نواحي تونس) غربا · ولما انتخب للامارة انتقل من تملو شايت التي كان ينسب اليها الى بلد ابناين أم قرى ذلك الوادي المنسوب الى كباو في هذ العصر فسميت البلدة باسم آل بيته الى الآن (اتبارون بالبربرية المحرفة) فسكنها نهائيا وبنى بها مسجدا لا يزال قائما الى اليوم ومدرسة · وبالجملة فقد كان كما قالوا من العلماء العاملين والزهاد المشهورين وكهفا لاهل نفوســة أجمعين · ومنهم ابنه العلامة الفحل التقي الورع الامير العـــادل أبو الربيع سليمان بن هارون ، ولي مشيخة الاسلام على عهد أبيه ثم بعد وفاته ولوه الامارة وكان اسم الشيخ في عصره اذا أطلق لا ينصرف الى أحد غيره ولم ينفصل عنه هذا اللقب المحترم حتى في عهد امارته · وكان مطاع الامر نافذ القول واسع البر كثير الاحسان الى طلبة العلم ، وكان يتولى بنفسه تعيين أمراء الجهات بعد الفحص والتثبت من كفاءتهم · ثم لا يقبل بعدئذ الطعن فيهم اذا فهم منـــه وصح لديه أن ذلك لغاية شخصية من حسد أو تعصب أو غيرهما كما أنه لا يتسرع الى نقل المراكز وعزل العمال الا لموجب شرعي : ومما امتاز به عهده السعيد أنه كان يستعمل أناسا مخصوصين لرقابــة الاسواق يمنعون بيع ما لا يحل من الاموال فيها حتى لا يجد الحرام سبيلا الى الديار النفوسية وأهلها · هكذا هكذا والا فلا لا · وينسبون اليه رحمه الله خوارق من الكرامات ليس هذا محل ذكرها فليراجع السير من شاء الوقوف عليها · ومن أشهر آل الباروني في العلـــم والعمل أبو سليمان داود بن هارون قال الشماخي وبالجملة انـــــه كان في أيامه تضرب اليه أكباد الابل في ايضاح كل مشكل وتفسـير كل غريب وجواب كل سؤال ، وشهرته في التقى والورع في بـــلاد نفوسة بل في جميع المغرب أشهر من أن تخفى أ هـ ووالده كذلك ·

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الباروني قال في السير : كان شيخا فاضلا وحاكما عادلا وكثيرا ما يكاتب أبا سليمان داود ابن هارون ويستفتيه فيما يستشكل من النوازل ·

ومن أمرائهم أبو منصور بن أبي زكرياء ، قال في السير : كان اماما سالكا على الصراط وحاكما قاضيا بالاقساط ، قدموه حاكما في جبل نفوسة ، وهو أيضا يستفتي في نوازله ومشكلاته أبا سليمان داود بن هارون وجوابه اليه بالتعظيم وكانت حكومته بعد أبيه ٠

وقد أهملنا ذكر طائفة من آل هذا البيت المبرزين في العلم والسياسة حبا في الاختصار وفرارا من التطويل ، ولكن على كل حال لا ينبغي أن نهمل ذكر امارة الطود الاشم الذائع الصيت أبي يحيى زكريا لما فيها من بعض حوادث هامة من الجناية على التاريخ ان نغض البصر عنها فنقول :

امارة أبي يحيى زكرياء بن ابراهيم الباروني

من أمجد أمراء هذا البيت وأعظمهم شأنا وأطيبهم ذكرا الامام الفحل أبو يحيى زكرياء بن ابراهيم بن زكرياء بن أبي هارون موسى ابن هارون الباروني ٠ قال الشماخي رحمه الله : هو الغاية القصوى في العلم والعمل والامر والنهي ، جدد المذهب بعد أن أخلق ٠ الى أن قال ٠ وفي أيامه رجعت بنو يفرن وككلة وبابل وتاكبال الى مذهب الوهبية وكانوا قبل ذلك مستاوة وحسنية وخليفة ، اتباع خلف بن السمح وأحمد بن الحسين وعبد الله بن يزيد المستاوي ، وهم اباضيون الا أنهم أنكروا مامة الامام عبد الوهاب الرستمي ، وقد تقدم التنبيه على مبلغ الفرق بين هؤلاء وبين جمهور الاباضية وان الخلاف سياسي أكثر من كونه دينيا ٠ وقد طابت أيام هذا الامام وأشرف في قلوب أمته حبه وعمهم جميع عدله واحسانه وكان رحمه الله ينفق انفاق من لا يخشى فقرا ويعطي عطاء ولا البرامكة مثله ٠ وذلك من ماله الخاص لا من بيت مال المسلمين ٠ ومن الامثلة على عظيم كرمه وواسع ثروته أنه في سنة من السنين وزع على جميع أهل الجبل من ككلة الى لالوت مع كثرتهم يومئذ كثرة تفوق أضعافا

مضاعفة سكانه اليوم وزع عليهم لكل نفس أو لكل بيت خمسة دراهم وثمن زيت · وزاره بنو يفرن في هرمه تبركا فلما أرادوا الوداع أعطى لكل واحد منهم عشرة دراهم وقيل قبض لكل واحد منهم قبضة فأراد أن يعطي لحاكمهم عون بن حريز ما بقي فامتنع وقال ما أتيت من بلادي أريد دنيا وانما أريد أن تدعو لي الله فدعا له · قال الشماخي فبقيت سيادة بني يفرن في ذريته الى يومنا هذا ببركة الشيخ · ومما ذكره عنه أنه كان بمدرسته ثمانون طالبا يدرسون العلم على نفقته ، وفي احدى السنوات المجدبة هموا بالرجوع الى أوطانهم رأفة بالشيخ فعلم بما عزموا عليه فمنعهم منعا باتا وأفهمهم أن الامر ليس كما يظنون فاطمأنوا ورضوا بالاقامة · الى أن قال : ولما مات حزن عليه أهل مذهبه وطلبته ورثاه كثير منهم بمراثي طويلة ، وابنه حتى أبكى الناس العلامة يوجين بن نوح الخ · وفي أيامه استفحل أمر ابن غانية الميورقي الذي سبى ونهب كثيرا من الاقوام والاقاليم واحتل واستحل كثيرا من عواصم افريقيا الشمالية وحارب الجبل النفوسي مرارا ينهزم مرة وينتصر أخرى وفي احداها أحرق ١٢ ألفا من زيتون ـ جناون ـ الكائنة بسفح جادو ولكنه على كل حال لم يتمكن من الاستيلاء على الجبل وانما في آخر غزواته صالحوه اذ أحسوا من أنفسهم الضعف عن مقاومته فدفعوا له مليوني دينار وذلك في سنة ٥٩٥ تقريبا الموافقة لسنة ١١٩٨ م وهذا المبلغ وان يكن غرامة حربية يدفعها المغلوب عادة الا أنه يصلح أن يكون دليلا لامعا على قوة نفوسة الجبل وثرائهم الواسع اذ لم ينقل انه أغرم اقليما بمثل هذه الغرامة أو ما يقاربها على كثرة ما كان يفعله من هذا القبيل مع الامم التي تغلب عليها ، فسبحان من يغير ولا يتغير (١) ·

---

(١) اما نفوسة الجبل في هذا الزمان فقد فشا فيهم الجهل والفساد ، فتفككت وحدتهم وتمكن الحسد فيما بينهم وابتعدوا عما كان عليه اسلافهم من التمسك بالدين والتحلي بالاخلاق الفاضلة كالصدق في القول والجد في الاعمال والوفاء بالوعد والعهود ، تلك الأخلاق التي كانوا يمتازون بها من بين الاقوام الاسلامية والطوائف الدينية ، كانوا مثلا اعلا في الخوف من الله والتورع عن محارم الله ،

أصـل العائلـة الباروني

واستمرار نفعهـا

لا يوجد في المتنورين من أهل الجبل وغير الجبل من يجهل مكانة البيت الباروني وأن أصله من الجبل الاخضر بعمان وأنه من أمجد بيوتات الفضل والزعامة في ذلك القطر العامر ، وان أبناء فروعـه القائمة هناك ما زالوا ممن يشار اليهم بالبنان وتسند اليهم مقاليد الاقاليم بمملكة عمان من بلاد العرب وزنجبار ودار السلام مـن افريقيا الشرقية · أما الفرع الذي استوطن الجبل فقد ظهر ذكـره وذاع صيته فيما بين أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القـرن الخامس ، وعندما ذكر صاحب السير أبا هارون الاول ذكر معـه أحد العلماء الاعلام المعاصرين له قائلا هو صنو أبي هرون في العلم لا في النسب الخ · ومعلوم أن هذا الاحتراز لم يكن الا لوجود بون شاسع بين المذكورين بحيث لا يسعه الغض عن بيان الفارق بينهما · هذا ولا يصح ما حادثني به مرة أحد الافاضل البحاثين من علمـاء القطر الطرابلسي في أصل نسبنا آل الباروني وتعليل تسميتـه اذ قال ممازحا جادا ان الذي يظهر لي أن أصلكم من أشراف الرومان أو الطليان الذين استوطنوا الجبل قديما والذين يحملون لقـب (بارون) فغلب بعد ذلك على العائلة وصار علما عليها الى أن ظهر الاسلام فأسلمت العائلة تحمل معها لقبها الموروث ومجدها المحفوظ بين قبائل نفوسة قبل الاسلام وبعده · فقلت له هذا استظهار جميل

يمتثلون الاوامر ويجتنبون النواهي ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم ·

اما احفادهم اليوم فهم ابعد ما يكونون عن هذه المكانة من الدين والاخلاق · انهم منهمكون فيمـا حرم الله ، لا يزعهم وازع ما عن الزنا والربا والفسق والدخان وشرب الخمور وترك الصلاة والزكاة وما اليها من الواجبات تركا وعملا · وهذا فضلا عن الكذب والبهتان وشهادة الزور في بعض الاحيان · هذه الحالة المؤسفة لم يسلم منها الا من سلمه الله وقليل ما هم · واذا قيل لاحدهم اتق الله اخذته العزة بالاثم ، بل ربما اعلنها عليك حربا عوانا لا هوادة فيها ولا هدنة ·

وتعليل معقول · ولكنه غير صحيح · ولنكتف من ذكر آل البارونـي بأولئك الافذاذ الأماجد مشيرين الى أن نفع الاسرة البارونية لاهـل الجبل دينا ودنيا لم يزل متواترا أبا عن جد منحدرا من الاصول الى الفروع الى الآن وما برح ينبوعا فياضا بالمعارف على ساكني الجبل النفوسي من أول القرن الخامس الهجري الى يومنا هذا لا يزاحمـه في ذلك أي بيت من بيوت المجد اللهم الا آل أبي منصور في الاول وفي أوقات متقطعة بعد ذلك ، أو آل الشماخي الذين منهم الامام الشـيخ عامر صاحب التصانيف العديدة والشيخ أبو محمد عبد الله بـن عبد الواحد والشيخ أحمد صاحب السير فانهـم جاذبوا أجدادنا أطراف من الوجهة الدينية ابتداء من القرن الثامن الى منتصـف القرن الثاني عشر فقط ، ثم فشا الجهل في الشماخيين وانفـرد البارونيون بالتقدم الديني والمدني كأسلافهم ، ولله الامر من قبل ومن بعـد (١) ·

انتشـار المذهب الأباضي بعمان والاقطار الشـرقية

إن انتشار مذهب الأباضية ببـلاد الشرق عمان وخراسـان والعراق ومصر وغيرها أقدم عهدا من انتشاره بالمغرب ، كيـف

---

(١) قرأ احد بني شماخ هذه النبذة فثار وعربد زاعما انها اهانة من المؤلف لاسرته ، فعهد لبعض البسطاء بان يقاطعوا تاليفه وان لا يشتروا نسخة من نسخه احتجاجا على سلوكه وانا اقول انه كان في عمله هذا يمثل من قال فيه الشاعر :

يا ناطح الجبل العالـي لتوهنـه اشفق على الراس لا تشفق على الجبـل

وبما ان هذا الفهم السقيم لم يخطر ببالي ، فقد لزم ان اقرر باني لم اقصد مما ذكرته الا تقريـر الامر الواقع ، عالما بانه لا يصح للكاتب في اي موضوع كان ان يشوه الحقائق ويقلب الاوضاع ارضاء لهذا او ذاك · وقد صرح العلامة الشيخ سعيد الشماخي في احدى قصائده بان الجهل شائع في اسرته وفي يفرن بني جلدته مخاطبا بها صديقه العلامة الورع الشيخ عبد الله والد البطل الشهير سليمان باشـا الباروني ومحرضا اياه على القيام بواجب الوعظ والارشاد ومحاربة الجهل بوطن يفرن · وهل يصح لنا ان نعتبر الشيخ سعيد الشماخي مهينا لنفسه ولاسرته ولبني وطنه حينما عبر بشيوع الجهل فيهم كما مر ·

وإمام المذهب جابر بن زيد نفسه من ذلك القطر (عمان) السابق الى اعتناق الإسلام بدون حرب ولا عناء ٠ واذ قد تقلص ظل المذهب الأباضي من أغلب الاقطار الشرقية ولم ترسخ دعائمه وتتوطد أركانه الا في عمان ومستعمرات عمان فلنأت اذا بخلاصة من تاريخ عمان من لدن رسول الله ﷺ الى اليوم لخصها أحد علمائه الاجلاء الشيخ محمد بن صالح بن عامر الطيواني ونشرت بمجلة «المنهاج» الغراء ، وسأضيف بعض ما كتبه غيره ليكون كالشرح لما يلزم شرحه منها قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه نبذة من تاريخ عمان »

ظهر النبي ﷺ وعلى عمان عبد وجيفر ابنا الجلندا ملكين عليها فبعث النبي ﷺ اليها عمرو بن العاص وبعث معه كتابا لهما ذكر في كتب التاريخ ، فذهب عمرو بالكتاب حتى وصل صحار قصبة عمان وقتئذ وبعث الى ابني الجلندا بالكتاب واجتمع بهما بعد ذلك فدعاهما إلى الإسلام بعد مناقشة جرت فأسلما طوعا وانقيادا ودعيا قومهما إلى الإسلام فأسلموا جميعا وسلموا له الصدقات ، فلم يزل عمرو مقيما بعمان الى أن بلغه خبر وفاة النبي ﷺ فرجع الى المدينة وصحبه عبد بن الجلندا ومعه أعيان عمان فقدموا على أبي بكر رضي الله عنه ففرح بمقدمهم وأثنى عليهم خيرا وعلى انقيادهم واذعانهم الى الإسلام بدون حرب ولا قتال فأقرهما أبو بكر على قومهما ولا يزالا ملكي عمان الى أن ماتا في خلافة عثمان بن عفان فولى بعدهما عباد بن عبد بن الجلندا ولم يزل ملكا في قومه حتى مات في خلافة علي بن أبي طالب ٠ فلما أفضى الملك الى معاوية لم يكن له في عمان سلطان ولا لمن بعده الى أيام عبد الملك فانه لما ولي الحجاج العراق رغب في الاستيلاء على عمان فلم يزل يجهز الجيوش اليها وفي النهاية استولى عليها بقيادة مجاعة بن شعوة

وهرب ملكا عمان سليمان وسعيد ابنا عباد بذراريهم الى بلاد الزنج ولاهل عمان في حرب الفرس أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اليد الطولى ومشاغلتهم لهم ٠ منها وقعة جاش التي قتل فيها شهرك أحد قواد الملك يزدجرد ٠ وبعد استيلاء الحجاج عليها لم تزل تحت النفوذ الاموي الى أيام أبي جعفر المنصور حيث استقل أهل عمان ببلادهم فعقدوا الامامة للجلندا بن مسعود وهو أول امام بعمان وذلك سنة ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) ٠ ثم ان أبا جعفر المنصور جهز جيشا تحت قيادة خازم بن خزيمة فتلقاه الامام الجلندا برأس الخيمة المعروفة بالصبر والتقى الجيشان هناك وقتل الجلندا ورجع خازم برأس الجلندا الى المنصور ولم يحدث شيئا بعمان ٠ ثم عقدوا الامامة لمحمد بن عفان فعزل وأقروا مكانه الوارث بن كعب الخروصي سنة ١٧٧ هـ٠(سنة ٧٩٣ م) فجهز هرون الرشيد الى عمان جيشا بقيادة عيسى بن جعفر بن المنصور فتلقاه أهل عمان بوادي حتى (واد بأعلى صحار) فأسروا عيسى وهزموا جيشه فبقي الوارث اماما بعمان اثني عشر سنة وستة أشهر ٠ ثم نصب أهل عمان بعده غسان بن عبد الله اماما الى أن مات سنة ٢٠٧ هـ (سنة ٨٢٢ م) وكانت امامته خمسة عشر عاما وسبعة أشهر وثمانية أيام ٠ ثم عقدوا الامامة لعبد الملك بن حميد سنة ٢٠٨ هـ (سنة ٨٢٣ م) ومكث اماما ثمانية عشر عاما وتوفى ٠ ثم عقدوا الامامة لمهنا بن جيفر سنة ٢٢٦ هـ (سنة ٨٤٢ م) ومات سنة ٢٣٧ هـ (سنة ٨٥١ م) فكانت امامته عشرة أعوام وأشهرا ، ثم عقدوها للصلت بن مالك الخروصي في ذلك اليوم سنة ٢٣٧ هـ ، فكانت مدة امامته على عمان ٣٥ عاما و ٧ أشهر وأياما ، وقبل وفاته اختلف أهل عمان في خلعه، فافترقوا فرقة رأت الخلع لانه صار شيخا عجز عن القيام بأعباء الامامة ، وفرقة لم تر ذلك ، فوقع بينهما القتال والشقاق ، فانتهز عامل المعتضد بالبحرين محمد بن نور هذه الفرصة واستأذن المعتضد بالله في فتح عمان والاستيلاء عليها ، وحبب له ذلك ورغبه في الانتقام من الفرقة اليمانية وهي الفرقة الخالعة للامام ، وانه

يشد عضد الفرقة النزارية التي حرمت الخلع ، فأسعفه المعتضد الى ما طلب ، وخرج الى عمان في جيش كثيف فانضمت اليه الفرقة النزارية فاحتل نزوى بعد وقائع وأوقع بالفرقة اليمانية وقتل الامام عزان بن تميم الذي نصب بعد موت الصلت ، وبعث برأسه الى بغداد · فبقيت عمان أربعين عاما تحت النفوذ العباسي ·

الفات نظر واعتذار

بالله تأمل وانظر الى هذا الخلاف البسيط كيف تجسم ودخله التعصب في الرأي الى حد أدى الى سفك الدماء الغزيرة والشقاق المؤلم الذي أوجب تدخل بني العباس واستغاثة أحد الفريقين بعاملهم على من شاققه في الأمر وخالفه في الرأي · وهذا هو الشأن في عاقبة التخاذل وسوء التفاهم فانها دائما تكون سيئة المصير وخيمة المآل ، يشهد لذلك قول الله عز وجل « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ·

هذا واعلم أنه ليس بأيدينا من المادة ما نتكل عليه في ذكر مآثر كل امام من هؤلاء الأئمة الأعلام ، وما كانت عليه أيامه من أمن وعدل ورقي وعلم · وانما يمكن أن نقول ـ استنادا الى قواعد المذهب في انتخاب الأئمة ـ ان سيرة هؤلاء وسلوكهم في أعمالهم الادارية وأحكامهم القضائية لا تكون الا وفق الشرع الحنيف وطبق ما عليه الخلفاء الراشدون من السلف الصالح في كل ما يؤيد الدين وينصر الحق · ا هـ

قال الشيخ : ثم اجتمع رأي أهل عمان وعقدوا الامامة لسعيد ابن عبد الله القرشي سنة ٣٠٠ هـ (سنة ٩١٢ م) وحرروا أنفسهم ، ثم قتل الامام سعيد في سنة ٣٢٨ في فتنة أهلية ، فعقدوا الامامة لراشد بن الوليد ·

تنازع الامامة الشرعية والملكية المطلقة

وفي أيام الامام راشد المذكور ظهرت بعمان دولة بني نبهـــان ، وهم بطن من الأزد ، فغلب هؤلاء على أزمة الأمور ، وأسقطوا الامامة بعمان وجعلوها ملكا الى سنة ٤٤٥ هـ (سنة ١٠٥٣ م) حيث عقدوا الامامة للخليل بن شاذان الخروصي ثم من بعده راشد بن سعيـــد ومات سنة ٥١٣ ، ثم تغلب بنو نبهان مرة أخـــرى على عمان ، وفي أيامهم استولت دولة آل بويه على سواحل عمان ، ثم غلب بنو نبهان على السواحل وأجلوا منها العجم . وفي سنة ٨٨٥ هـ (سنة ١٤٨٠م) عقدوا الامامة لعمر بن الخطاب الخروصي ، ثم غلب عليه بنو نبهان وظل الحال هكذا الملك النبهاني بجهة والامام بجهة ، وفي خلال هذه الأعوام استولت دولة البرتغال على سواحل عمان كلها وحصنت مدينة مسقط وعمرتها وجعلتها بندرا حربيا لها ، فتم بذلك استيلاؤها على الخليج العربي كله ، وبقيت مسيطرة عليه الى أن أجلاها عنـــه آل يعـــــرب .

دولـة آل يعرب وأئمتهـا وفتوحاتهم العظيمة

وفي سنة ١٠٣٤ هـ (سنة ١٦٢٤ م) عقدوا الامامة لناصر بـن مرشد اليعربي ، وهو أول امام من دولة آل يعرب الطائرة الصيت ، فناشب البرتغال الحرب ، وأجلاهم عن جميع السواحل العمانية الا مسقطا فانه عقد الهدنة مع البرتغال ومات سنة ١٠٦٠ هـ (سنـة ١٦٥٠ م) فعقدوا الامامة بعده لابن عمه سلطان بن سيف اليعربي ، فنقض الهدنة مع القائد البرتغالي واستولى على ذخائرهم وحصونهم اللاتي شادوها في قنن الجبال الشامخة ، ثم شرع في بناء أسطول ضخم وجعل مسقطا ميناء حربيا له وأعد فيه المعدات الكافية مـن مدافع وغيرها ، فطرد البرتغال من الخليج العربي كله بعد وقائـع هائلة أهمها واقعة كنج من بلاد العجم ، واحتل مضيق هرمز.

ثم هاجم البرتغال في سواحل الهند فاستولى على الديو وخربها ووسى وبمبي وغيرها من المدن الشهيرة بساحل الهنـد ، وبعد أن أجلاهم عنها وجه في مطاردتهم أسطوله الى افريقيا الشرقية ، واحتل فازة وبتة وكلوة ، وحاصر ممباسة ، واحتل مضيق باب المنـدب وجزيرة قمران ، ومات رحمه الله بنزوى سنة ١٠٩٠ هـ (سنـة ١٦٧٩ م) .

ثم عقدوا الامامة لولده بلعرب ، ومكث في الامامـة أربعة عشر عاما ، ومات خليعا ودفن بقصر جبرين سنة ١١٠٤ .

ثم عقدوا الامامة من بعده لأخيه سيف بن سلطان بن سيف ، فزاد في بناء الاسطول الذي أنشأه والده ، وأضرم نار الحرب علـى ممباسة ـ ثغر بافريقية ـ فاستولى عليها وعلى افريقيا الشرقية كلها الى رأس الرجاء الصالـح ، وذلك بعد حروب طاحنـة ذكرت في

التاريخ · ومات رحمه الله بالرستاق سنة ١١٢٣ هـ (سنة ١٧١١ م) ومن فتوحاته الرياض عاصمة آل سعود اليوم والاحساء · روى المؤرخون أنه تولى فتح الرياض بنفسه وأتى بنحو ٣٥ أميرا من أمراء نجد أسارى الى « نزوى » عاصمة عمان ، ويروى عنه أنه قال : ان أعانني الله لأجعلن المسافر من نزوى الى مكة يذهب بلا زاد ، يعني يبذل الهمة في عمران الطريق · أما تعميره عمان فحدث عن البحر ، فكم له من مدن بعمان عمرها وأنهار أجراها وحصون شادها ، ولو لم يكن الا بلاد الباطنة وهي مسافة ١٣٠ ميلا كلها متتابعة العمران آهلة بالاباضية لكفاه فخرا مدينة العلياء أبهج بلاد عمان وأنقاها هواء ·

ثم عقدوا الامامة بعده لولده سلطان ، فوجه عنايته لحرب دولة ايران ، وانتزع من أيديهم جزيرة القسم والبحرين ولارك وجاش وبندر عباس بعد حروب طاحنة وأهمها وقعة البحرين ، وقد أطنب في وصفها شعراء عمان في ذلك الوقت وذكر من قتل فيها من قواد العرب وعلمائهم ، ومات بالحزم سنة ١١٣١ هـ (سنة ١٧١٨ م) ·

وبعده اختلفت كلمة أهل عمان : فرقة أرادت الامامة لابنه الصغير سيف بن سلطان وهم الرؤساء والقواد ، وفرقة أرادت الامامة لعمه يعرب وهم العلماء ، فوقع القتال بينهما واستمر الخلاف ، وكان من أشهر قواد عمان محمد بن ناصر الغافري وخلف بن مبارك النهائي ، والكل منهم منضم الى فريق ، فمن انضم الى خلف سمي هنائي ومن انضم الى محمد بن ناصر سمي غافري ، وهذا الخلاف باق أثره الى اليوم بعمان ·

غارة العجم وسقوط آل يعرب

وفي غضون هذه الفتنة انتهزت دولة ايران الفرصة في عصر السلطان نادر شاه ، فأرسل جيشا مؤلفا من ستين ألفا تحت قيادة

وعقدوا الامامة بعده لابن عمه الامام عزان رضي الله عنه وهو ابن قيس بن عزان بن قيس ابن الامام أحمد بن سعيد سنة ١٢٨٥ هـ (سنة ١٨٦٨ م) واستولى على جميع عمان ، واستشهد بمطرح سنة ١٢٨٨ هـ (سنة ١٨٧١) ٠

وملك بعده السيد تركي بن سعيد ، وفي أيامه استولى على ظفار وألحقها بمملكته ٠ وفي أيامه انفصلت المكلا ثغر حضرموت عن حكومة مسقط ، واستولى الايرانيون على شهبار أحد ثغور مكران ، ومات سنة ١٣٠٥ هـ (سنة ١٨٨١) ٠

ثم ملك من بعده ولده السيد فيصل بن تركي ، وفي أيامه أعني في جمادى الثانية سنة ١٣٣١ هـ (سنة ١٩١٢ م) حدثت الثورة بعمان ، ونصب الامام سالم بن راشد الخروصي ، واستولى على غالب داخليه عمان ، ومات السلطان بعد الثورة في تلك السنة ليلة رابع ذي القعدة ٠

وملك ابنه السلطان تيمور بن فيصل ٠ وفي أيامه قتل الامام سالم ابن راشد سنة ١٣٣٨ هـ (سنة ١٩١٩) قتله أعرابي أراد انفاذ حكم عليه ٠ فبايع العمانيون محمد بن عبد الله الخليلي اماما بعده ٠

وفي أول سنة ١٣٣٩ انعقد « مؤتمر السيب » وعقد هناك صلح بين السلطان والامام على بنود : أهمها عدم تدخل السلطان في داخلية بلاد الامام ، وعدم تدخل الامام في داخلية بلاد السلطان ٠

انتهى ما لخصه الشيخ العماني الفاضل ، وهو على ما فيه من الاختصار مفيد للغاية ، اذ غالب الناس لا يطلبون من تاريخ الأمم التي يجهلونها أكثر مما ذكره ، والتفاصيل المسهبة بذكر العلماء والأدباء والشعراء والوقائع الداخلية حربية كانت أم مدنية وغيرها وغيرها من كرامات الاولياء والصالحين وفضائل الأئمة والملوك العادلين انما يعنى بها ويحرص على الوقوف عليها فريقان من

الناس : اهل ذلك القطر خاصة أو علماء التاريخ المختصون • نعم لتتم الفائدة للقارىء لا نحرمه من ذكر بعض تعاليق مفيدة لكاتبين شهيرين من كتاب هذا العصر الذين كتبوا حول تاريخ امة عمان ذات العظمة الخالدة والصيت البعيد •

تعاليـــق مفيـــدة

بقلم الشيخ اطفيش والأمير شكيب

لما تم الجزء الثاني من « تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان » لمؤلفه العلامة الامام ابي محمد عبد الله بن حميد السالمي العماني • قال العلامة أبو اسحاق ابراهيم اطفيش الميزابي : وبعد فقد تم طبع الجزء الثاني من « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » فكمل به هذا الكتاب الفريد ، الذي كشف لنا حال قطر من أعظم الأقطار الاسلامية تاريخا واهمها شوكة ودولة • وقد كان تاريخ عمان ـ ولا يزال معظمه ـ عنا غامضا ، ولكن هذا الكتاب بين لنا عن صفحات منه جليلة وأطوار فخيمة وذكريات تحمل الينا أنباء جميلة وأخرى عليلة أسيفة ، وكم بين طيات التاريخ من عبر وآيات بينات كان منها نذير للبشر ، وتقلبات هي احدى الكبر •

ولقد أحسن المؤلف رحمه الله في ترتيب أطوار الحكم بعمان من امامة وملكية حسب الزمان • منذ ظهور الحكم المستقل في عهد التابعين الى آخر أيام المؤلف • أقول : لم يصل الينا الجزء الأول من التحفة ، أما الجزء الثاني فمبدؤه من دولة اليعاربة الى عهد المؤلف رحمه الله المتوفى في العقد الثالث من هذا القرن • قال الشيخ اطفيش : فكان حسن هذا الترتيب احدى مزايا الكتاب • ولئن فات المصنف أن يضم الى كتابه كثيرا من رسائل أئمة العلم الى أئمة الحكم اذ لها علاقة بتاريخهم ، فانه لم يدخر وسعا في جمع عهود الأئمة الى ولاتهم وقوادهم وامرائهم ، وكانه رحمه الله يرى أن يحفل

بشان الأئمة حيث كان يذكر ما احتوى عليه كل امام من كرائم الفعال ومحاسن الخصال ، وما ازدهر به عهده من علم وعدل ودين ومساواة بين الناس في الحق ، ومشاورة أهل الحل والعقد من العلماء في تصرفاته بحيث يخرج القارىء من مطالعته وقد تصورت له صفحة من تاريخ الحكم الشورى كما كان في عهد الخلفاء الراشدين ، ومقتضى ما يرشد اليه الكتاب العزيز﴿ وانه لتنزيل رب العالمين﴾ ، ولم يحفل كربذ أطوار الحكم الفردي وما فيه من سوء الاستبداد واقتراف المنكرات ، والظلم من شيم تلك النفوس غالبا · وكان من مقتضى التاريخ أن يلم بكل أدوار الأمة التي يكتب عنها الكاتب ، الا أنه ربما يعتذر عن المؤلف بأن علماء الشريعة يتورعون عن ذكر حوادث الجورة وما يأتونه من الجرائم بدعوى أن ذلك من قبيل نشر الباطل · والحق أن هذا ليس بعذر ، وأخطأ من يلتمسه · وانما المصنف لم يحفل في تاريخه هذا بعهد الجورة تفصيلا لعدم وقوفه عليه وقوفا يجعله واثقا مما يكتب ، ويدلك على هذا أنه ذكر بعض وقائع من هذا القبيل ، وكشف أسرار بعض المستبدين وما بيتوه من حيل توصلوا بها الى الحكم ، وسفك دماء بريئة صعدوا علي جثثها الى أريكة الملك وامتطوا غواربها الى أطماعهم ، فكانوا وبالا على الأمة حينا من الدهر ، كما وقع في عصر بني نبهان · والحق أن عمان ليفتخر بعظمته التاريخية عظمة العلم والفتح ونشر لواء الاسلام في كثير من أقطار الشرق والأقطار الافريقية الشرقية وجهاد ائمته وكثير من ملوكه في حفظ استقلاله ، ويحق له أن يباهي بائمته الهداة الراشدين الذين رفعوا منار الحق والدين ، وأقاموا حدود الله بلا هوادة ، ولم يخافوا لومة لائم﴿ قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ ·

وقال حفظه الله في موضع آخر : يكيف بعض الكاتبين من غير أصحابنا ولا سيما المستعمرون الانقلابات بعمان حسب ما يشاء له

هواه ، وقد يشتد بعضهم في القول الى حد الطعن السخيف ، ولم يتبينوا السر في وجودها · وذلك أن الأمة العمانية مشربة بروح النظم الشرعية التي يجري عليها الأئمة ، وهي الحكومة المبنية على الشورى وانتخاب الامام والعمل بالشريعة ورد كل شيء الى حكمها حسبما كان عليه الخلفاء الأربعة - قلت وخلفاء بني رستم في المغرب - واذا ضعف هذا الأسلوب من الحكم برزت الملكية الى الميدان فيظهر الصراع بين الملكية والامامة ، وهو كالصراع بين الملكية والجمهورية في الأقطار الغربية ، ومن ذلك الانقلاب الذي ظهر على أثره الامام عزان بن قيس رضي الله عنه فانه امام شرعي باجماع الأمة ، ووصف الأجانب له بما هو هراء لا يطمس الحق ، ولا عبرة بمن تبعهم من المسلمين في هذيانهم · والله أعلم · ا هـ

وقال الأمير شكيب أرسلان - بعد أن ذكر باسهاب واعجاب ما كانت عليه الدولة العمانية في بعض عصورها من عظمة وقوة وفتح واستعمار ومدنية وعدل الخ - قال : هذه مملكة عمان التي كانت أقوى دولة بحرية في آسيا كلها لا في بلاد العرب وحدها ، والتي قرأت في بعض المؤلفات الأوروبية أنها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ باخرة حربية قد آل أمرها بتلاعب انكلترا بأمورها الى أن سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجونا ، وصارت امارة صغيرة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ولا يقدر أميرها أن يأتي بأمر مهما كان تافها الا اذا أشار به المعتمد البريطاني · فنزف هذه الحقيقة الى أولئك البله من أبناء جلدتنا الذين لا يزالون يحلمون بأن انكلترا لا بد أن تؤسس لهم دولة عربية ·· الى أن قال :

وأما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرق افريقية فقد تقاسمتها انكلترا مع ألمانيا وايطاليا ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنجبار سوى اسم السلطنة فقط ·

وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلومترا مربعا معدودة من أخصب البقاع وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ومعاصر

الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ومن الواحاديمو أي أهل الجزيرة الأصليين ، ومن البانيان أي الهنود الشماليين · وكانت زنجبار - مع جزائر بمبا ، ومافيه ، ولامو ، والسواحل الشرقية المقابلة لها - مملكة عربية أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط بل بعد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون · فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانكلترا سلطنة زنجبار التي هي عبارة عن جزيرة زنزبار ، وبمبا ، وما يقابلها من الساحل من (أوانغا الى كيسمايو) ·

وأن يكون لألمانيا جزيرة مافيه والساحل الذي بين اومبه ورافومه، وأن يكون لايطاليا بعض ثغور في الساحل · وأهم هذه النقاط هي جزيرة زنجبار · وفي الجزيرة مدينة باسم زنجبار أيضا أهلها ١٠٠ر٠٠٠ نسمة وهي مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادرها ووارداها بنحو ٦٠ مليون فرنك ، وقد سلاطين عمان أسسوا فيها عمرانا وأثلوا مدنية وشادوا مدارس · وقرأت بعض أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية في زنجبار ·

وخاتمة سلاطين زنجبار اسما وفعلا كان السيد برغش بن سعيد ابن سلطان ، تولى الأمر في ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، وبقي في الملك الى أن توفى في ٧ مارس سنة ١٨٨٨ · وكان برغش قد نازع أخاه ماجد الملك وأخذ الانكليز الى بمباي حيث أقام سنتين · ثم تصالح مع أخيه وعاد الى زنجبار · ولما مات ماجد خلفه على كرسي الامارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانيا العظمى أي مآربها الاستعمارية · وفي ٥ يونيو « حزيران » ١٨٧٥ أجبرته انكلترا على امضاء معاهدة الغاء الرقيق في بلاده ، فأمضاها ، ثم دعاه الانكليز الى زيارة انكلترا فزارها وزار فرانسا والبرتغال · وفي سنة ١٨٨٥ ألقت المانيا دلوها في الدلاء وأرادت تأسيس

مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التي كانت تخص السلطان برغش بن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منهـا ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية ٠

وقبل وفاته بقليل : اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيه ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف الى ما بعد وفاته ، حتى جرى التحديد بين الألمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى ، وفـي آخر حياته ذهب الى وطنه الأصلي عمان لتبديل الهواء ثم عاد الى زنزبار ومات وخلفه أخوه خليفة ٠

وكان برغش متوقد الذهن عالي الهمة صعب المقادة أبي النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للأوربيين الذين كانت لا تخفى عليـه مقاصدهم ٠ وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم ٠ ومن بعـده لم يبق للعرب من سلطنة في تلك الجزائر الخصيبة والسواحـل الطويلة العريضة الا الاسم ، لأن الأوروبيين ـ لا سيما الانجليز ـ التزموا هدم أركان القوة العربية في تلك الديار حتى لا يبقى لهـم معارض ولا منازع في استعمارها ، وكما أنهم أوهنوا الأصل الذي هو عمان فقد أسقطوا الفرع الذي هو زنجبار ، لأن كل دولة عربيـة عزيزة على جانب الأقيانوس الهندي هي قذى في أعينهم ، وخطـر على الهند في نظرهم ٠ ويجدون أنهم لا يقدرون أن يعلوا في تلـك الديار الا بسقوط العرب على حد قول القائل :

وكم قائل مالي رأيتك راجلا فقلت له من أجل أنك فارس

انتهى ما أردنا ذكره مما كتبه الامير الأكتب شكيب أرسلان ٠

قلت : فليتأمل القارىء الحر في هذه الصحف التاريخية البيضاء التي نمق سطورها أئمة تيهرت بالمغرب وأئمة عمان بالمشرق ٠ وهي كما ترى عظيمة القدر جليلة الخطر ، حافلة بجلائل الاعمال ومفاخر الاجيال ، وهي جزء طبيعي من التاريخ الاسلامي المجيد ٠ انظر كيف

يمر عليها مر الكرام جمع غير قليل من المؤرخين قديما وحديثا ، في الوقت الذي نراهم لا يغادرون صغيرة ولا كبيرة من الدول الا سجلوا أعمالها وخلدوا فيما كتبوه ذكرها · وقد يكون البعض منها مما لا يقام له وزن كالدويلات التي لم تعش أكثر من ربع قرن ولم يدخل تحت حكمها الا آلاف قليلة من بني البشر · فما بالهم يذكرونها في مطولاتهم ومختصراتهم ، ويهجرون ذكر دول قامت على دعائم العدل وقواعد الشرع ، وخدمت الدين والانسانية والمدنية خدمات تعنو لها جباه المنصفين اجلالا وتقديرا كدولتي بني رستم ونفوسة بالمغرب ودولتي عمان وزنجبار بالمشرق · وقد رفعت من شأن الاسلام وأعلنت مناره وأيدت تعاليمه بما قصر عنه كثير غيرها من الدول الاسلامية · وعمرت قرونا وقرونا ، وخضع لسلطانها ملايين وملايين من النفوس ، وهي اذ ذاك في مجد شامخ وعز باذخ لا يدانيها فيه عشرات من تلك الدويلات مضموم بعضها الى بعض · فيا سبحان الله ، أنقول انهم يجهلون تاريخها ونرضى لهم بالجهل وكفى ؟ أم نقول ان هذه الدول لكونها تنسب الى الاباضية فلا يجمل بهم ذكرها ولا يحسن أن تحشر في زمرة الدول التي دونوا أعمالها ؟ أفيصح ويجوز أن يكون عذرهم هو هذا ؟ اللهم انه لعذر أقبح من ذنب ما ارتكبوه · ألا فليعمل العقلاء وليجد النبهاء في ازالة هذه السخافات من بين المسلمين ، وليبادل بعضهم بعضا دراسة تاريخ أمم الاسلام وفرقه بلا تحيز ولا تمييز · وليعلموا أن الخلاف الواقع بين الاباضية والمذاهب الأربعة هو أبسط جدا مما يتصورون ·

ولكي تقف ـ أيها القارىء ـ على أهم نقط الخلاف فيقوى يقينك ويستنير فكرك ويسود نفسك الاطمئنان نورد لك شيئا من المسائل المختلف فيها ، وبالله التوفيق ، ومنه نستمد العون ·

أهم المسائل الخلافية
بين الاباضية والمذاهب الأربعة

١) الصفات الالهية : يقول أصحاب المذاهب الأربعة ان صفات الله غيره وهي قديمة بقدمه تعالى ، والاباضية يقولون هي عين ذاته لا حاجة الى شيء زائد عنها نفيا لتعدد القدماء ٠

٢) الرؤية : ينفي الاباضية رؤية الله تعالى دنيا وأخرى لأنها تستلزم ما لا يليق بذاته من التحيز وغيره ، والأشعرية (المذاهب الأربعة) يثبتونها له في الآخرة بلا كيف ولا انحصار في جهة ٠

٣) القرآن : الاباضية يقولون ان القرآن مخلوق حادث ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث والأشعرية يقولون انه قديم ٠ وأدلة الطرفين في هذه المسائل مبسوطة في المطولات ٠

٤) مسائل الخلود في جهنم ٠ الاباضية يقولون داخل النار من عصاة الموحدين مخلد فيها لا يخرج منها أبدا فهو في الخلود مثل داخل الجنة ، الا أن الموحد أخف عذابا من غيره ٠ أما الاشعريةفلا يقولون بخلود الموحد العاصي في النار فان دخلها عذب على قدر ذنبه ثم يخرج منها الى الجنة ٠

٥) مسألة الايمان ٠ الاباضية يقولون الايمان قول وتصديق وعمل ٠ والاشعرية يقولون هو قول وتصديق ، وقيل هو التصديق والقول معبر عنه فقط ٠

٦) ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص ٠ يقول الاباضية بوجوبهما (كولاية الجملة وبراءة الجملة) وصورة الولاية : أن يتولى المكلفون من تثبت ولايته وهو الطائع الموفى بما أمره الله فيحبونه لذلك ويستغفرون له ويساعدونه في شئونه الدنيوية من

بيع وشراء وسائر المعاملات ، وأما البراءة فصورتها : أن يتبرأوا من العاصي ويقطعون معاملته ويهجرونه بحيث يصير كأنه بمعزل عن العالم الى أن يتوب الى الله ، فاذا تاب وأقلع عن معصيته أعيدت اليه هذه الحقوق وعومل بما يعامل به سائر اخوانه وهو كما ترى حكم من أفعل الاحكام في زجر الناس عن الخروج عن طاعة الله وأنظمة هذه الحياة ، وباعث قوي للنفس على السير في المنهج القويم دينا ودنيا ، فهو ـ لكونه دينيا ـ يغني عن أشد العقوبات المدنية التي سنتها القوانين الوضعية · وقد شهد لتأثيره الحسن في اصلاح الهيئة الاجتماعية حال النفوسيين قديما وما كانوا عليه من العز الشامخ والثراء الواسع ، كما هو شأن العمانيين حال مجدهم حينما كان العمل به جاريا · وحال الميزابيين اليوم بالجزائر وما هم عليه من انتظام الأحوال واتساع الثروة والتمسك بالدين أصدق شاهد على ذلك · فانهم ما زالوا في تطبيق أحكام الولاية والبراءة على ما هو عليه سلفهم الصالح · والمذاهب الأربعة لا يقولون بولاية الاشخاص وبراءة الاشخاص ، ويكتفون بولاية الجملة وبراءة الجملة الخاص حكمها بمن لم يتدين بدين الاسلام ولا ينسحب على عصاة الموحدين عندهم ·

٧) مسألة الشفاعة · يقول الاشعرية ان الشفاعة تنال أصحاب الكبائر من الأمة المحمدية · وأما الاباضية فعندهم لا ينالها الا من مات منهم على الوفاء والتوبة النصوح ، ولكل أدلته كما في سائر المسائل ·

٨) يطلق الاباضية على الموحد العاصي كلمة كافر ويعنون بها كافر النعمة ويجرون عليه أحكام الموحدين ، ولهم في ذلك مسوغات شرعية ولغوية ليس هذا محل ذكرها · فالكفر عندهم كفر نعمة ونفاق وهو هذا ، وكفر شرك وجحود وهو الذي يخرج الانسان من الملة الاسلامية · والأشاعرة يكتفون بتسميته عاصيا وفاسقا ، ويمنعون

اطلاق الكفر عليه ولو كان مقيدا بما قيده الاباضيون ، ويؤولون ما جاء مشعرا بذلك · وكلا المذهبين على اتفاق في اجراء أحكام الموحدين عليه · فالخلاف بينهما يقرب أن يكون لفظيا لا روح له من جهة المعنى كما ترى ·

٩) الميزان والصراط يوم القيامة ، يقول الاشعريون إنهما حسيان ، فأعمال الانسان توزن يوم القيامة بميزان ذي كفتين إظهارا للحق وتبكيتا للمقصر · والصراط جسر ممتد على متن جهنم ، تمر من فوقه الخلائق كل بحسب عمله ، فمن مسرع ومن مبطىء ، ومن متردد في الجحيم · وأما الاباضية فيقول جمهورهم ان الميزان ليس بحسي والله غني عن الافتقار اليه ، وإنما هو تمييز معنوي للأعمال﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾كيف والأعمال ليست بأمور محسوسة حتىٰ توزن بميزان من نوعها والصراط أيضا ليس بحسي وانما هو دين الله الحق وطريقه القويم فمن اتبعه فاز ونجا ، ومن حاد عنه خسر وهوىٰ · ومن الأباضية من يجيز أن يكون الميزان والصراط حسيين على نحو ما قالت الاشعرية ·

١٠) من المسائل الخلافية التي ليست من أصول الدين ولكن لها تأثير ذو بال في تغيير مجرى الحياة العامة في الاسلام وهي مسألة الصحابة : فالأباضية المتقدمون يرضون عنهم الا من أحدث ما يخالف ظاهر الدين وأصر على ذلك ولم يتب · أما اذا تاب كعائشة أم المؤمنين في توبتها من موافقة طلحة والزبير عند خروجهما من الإمام علي بن ابي طالب في وقعة الجمل فانهم يرضون عنها وعن كل تائب من عمله الخاطيء ·والمتأخرون منهم يرون التوقف وعدم الخوض أولى · والاشعرية يعذرون الصحابة جميعاً ويرضون عنهم جميعا · كذا قيل والذي أراه أنهم كذلك الا في قسم الصحابة المخالفين للامام علي بن ابي طالب فانهم يرضون عن معاوية ولا ينتقدون اتباعه مع أنهم أشد الناس عداوة للامام الشرعي ابن ابي طالب · فقد سن معاوية شتم الإمام على المنابر واستمر العمل بهذه

السنة السيئة في بني أمية الى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز فانه رحمه الله قطعها وأبدلها بآية قرآنية وهي قوله تعالى ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ ولنعم ما فعل هذا الامام العادل النادر المثال في ملوك المسلمين وأئمتهم · ولكنا نراهم يسخطون ولا يرضون عن أهل النهروان والنخيلة وينسبونهم الى الخطأ والزلل مع أن أكثرهم أو قادتهم على الأقل من أصحاب رسول الله وخيارهم ومن أعلمهم بالحلال والحرام وأشدهم تمسكا بدين الله · وقد روى التاريخ ، ان الامام عليا ندم على قتالهم يوم « النهروان » ندما شديدا وسمعه جم غفير يردد تأبينهم بقوله والله لأنتم أسود النهار رهبان الليل ولأنتم أصحاب الدار يوم الدار وأصحاب الجمل يوم الجمل وأصحاب صفين يوم صفين وأصحاب القرآن اذا تلي القرآن الخ ·· اني أجهل تماما السبب الحامل للاشعرية في هذا التفريق بين الصحابة والخوض في شأن بعضهم دون بعض خلافا لقاعدة مذهبهم ·

١١) من المسائل الفرعية المختلف فيها ولكنها ذات خطر في مجرى الحياة الاسلامية العامة مسألة الإمام العظمى (١) ، فالأباضية

---

(١) الامامة العظمى واجبة متى توفرت شروطها · وهي ان يكون اهل الحق نصف عدوهم المتخوف منه او اكثر ، ولهم ما يكفيهم من علم ومال وسلاح وكراع · واذا عقدت الامامة لمن هو لها اهل لم يجز له تركها · وشرطه ان يكون ذكرا بالغا عاقلا عالما بالاصول والفروع متمكنا من اقامة الحجج وازالة الشبه ذا رأي وخبرة في الحروب شجاعا ولو كان لا يباشرها بنفسه لا يلين ولا يفشل من اهوالها ولا يهاب اقامة الحدود وضرب الرقاب في سبيل الله ونصرة الحق · واذا توفرت هذه الشروط في القرشي فهو اولى والا ففيره ممن رضيه اهل الحل والعقد من المسلمين · ولا يفهم من هذه الشروط ان نصب الامام غير واجب اذا فقد شرط منها ، لا بل يتعين عليهم نصبه ولو كان دون هذه المنزلة ·اذ العبرة بالشروط الاساسية التي لا يشاد صرح الامامة بدونها · ١ هـ ما قاله الامام القطب الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ببعض تصرف · ومما قاله في هذا الصدد : وعندنا ان الامامة من الاصول لما صح عن عمر وغيره من الامر بقتل من تعين نصبه اماما فابى من قبولها · الا انها ليست مما يقدح تخلفه في صفة الله · فمعنى كونها من الاصول انه لا يجوز الخلاف فيها · الى ان قال : وقالت الاشعرية انها من الفروع المتعلقة بافعال المكلفين · ونصب الامام عندهم واجب سمعا ، وكذا عندنا الا ان العقل يناسبه اذ لا تقام الحدود الا بها · وقالت الصفرية والازارقة والنجدية : لا يجب نصب الامام اصلا · وبعضهم قال يجب عند الامن لا عند الفتنة · ولكر القوال غيرهم واطنب رحمه الله · ١ هـ من شرحه للعقيدة ·

يرون وجوب نصب الامام كالاشعرية الا أنهـــم لا يحصرونها في عنصر خاص ، بل شرطهم الاساسي هو الكفـــاءة الشرعية في الشخص المختار لها ، وتجب طاعته ما دام على الحق والعـــدل شعاره ، فان جار في الحكم وخالف الحق ولم يتب جاز بل وجـــب الخروج عنه · والاشعرية يقول جمهورهـــم لا يجوز الخروج عن الامام الجائر ، ويقولون عن الخلافة يجب أن تكون في قريش ومـــن تبوأها من غيرهم فانما هو غاصب لحقهم ·

١٢) مسألة الوقف ـ يقول الأشعرية كلهم أو جمهورهم ان الوقف بقسميه من الدين ويجب العمل به مطلقا (١) · والاباضية يحرمون وقف الذرية المسمى اليوم بالوقف الاهلي ولا سيما المتعلق بحرمان الاناث من ارثهن الشرعي ، واباضية الشرق لهم في ذلك تفصيل ، والجميع لا يرون بأسا في الوقف الخيري المراد به وجه الله خالصا كالمساجد والمدارس والمستشفيات وغيرها ، وللواقف ثواب عمله ·

وما عدا ما تقدم فالخلاف فيه سواء في العبادات والمعامـلات شأنه شأن الخلافات الواقعة بين المذاهب الاربعة فما تجده سائغا عند الاباضية والمالكية قد تجده ممنوعا عند الحنفية والشافعيـــة مثلا والعكس ، وهكذا في أغلب المسائل · كالخلاف في المنخنقـــة والموقوذة والمتردية فان ذكاتهن عن الاباضية جائزة ، وعند المالكية ممنوعة ، ولكل دليله ، وفي المذاهب الأربعة من يوافق الاباضية في ذلك ويخالف المالكية والعكس وكجواز الطلاق بالاعسار والغيبـة عند المالكية والاباضية وعدم جوازه بهما عند الحنفية · واستمرار

---

(١) وقفت على محاضرتين رد فيهما كل من العلامة الشيخ محمد بخيت والعلامة محمد علي علويه باشا على صاحبه وكلاهما من عظماء مصر ومشاهيرها · الاول يرى ان الوقـــف بقسميه (الاهلـــي والخيري) من الدين · والثاني يرى لزوم الغاء الوقف الاهلي لكونه ليس من الدين مع قلة الانتفاع به حيثما يكثر المستحقون بالتناسل فيصبح مهملا خرابا لا عناية لاحد به · واطـــال كل منهما في البحث والرد ، وكل ادلة وانصار · فانت ترى ان الباشا المذكور قد وافق ما عليه الاباضية من حيث لا يدري ، فضلا عمن ذكرهم في محاضرته ، فتامل جهل بعض المسلمين ببعضهم ·

حق الحضانة لأم المحضون ومن يليها الى بلوغ الذكر وتـــزوج الانثى عند المالكية ، والتفصيل والتخيير للمميزين عندنا ، والـى سبع سنوات للذكور وتسع للاناث عند الحنفية · وكمنع التقصير في الصلاة للمسافر بنية الاقامة أربعة أيام عندهم واستمراره مـا انتفت النية في الاقامة واتخاذ الوطن عندنا لحديث « صلاة المسافر ركعتان حتى يؤوب الى أهله أو يموت » ، وعلى هذا الرأي كـــان الحسن البصري التابعي المشهور فقد روى عنه أنه قال : مضـت السنة أن يقصر المسافرون ولو أقاموا عشر سنين ما لم يتخذوهـا وطنا · وهكذا الشفعة للغائب : فانه باق على حقه فيهـا عندهم ، ولا شفعة له عندنا لما في ذلك من تعطيل الحقوق · ومثله اليتيم أيضا للعلة نفسها · وكذلك الجنابة فانها لا تبطل صوم الصائم عندهـم وعندنا تبطله ، ويجب على المجنب أن يغتسل قبل طلوع الفجر فان أصبح مجنبا فقد أصبح مفطرا الا أن بادر الى الاغتسال · وعندنا يحرم نكاح الزانية على الزاني بها ولا تحرم عليه بذلك عندهـم ، ولكل من الفريقين أدلة طويلة ومستندات يطول شرحها ، فلا يناسب في هذا المختصر سوقها ، ومثل ذلك الدخان فانه حرام عندنا ومباح أو مكروه عندهم ، وقيل حرام عند بعضهم · ومنها أن أصحابنـا جعلوا النظر في اقامة كافل اليتيم للعشيرة وعلى القاضي التنفيذ ، وعندهم ان ذلك من اختصاص القاضي لا غير · ومنها جـــواز الحكم في الاموال بالشاهد واليمين عند المالكيـــة ، ولا يكون الا بالشاهدين عندنا وعند الحنفية كسائر الحقوق والحدود الا فـــي الزنا فان الجميع اتفقوا على أربعة شهداء والا أقيم عليهم حـــد القذف · وكذا الاعذار فانه لازم في الحكم عند المالكية وغير لازم عند الاباضية والحنفية · ومنها ان البسملة آية من كل سورة عند الاباضية والشافعية وعند الحنفية أيضا فيما أظن وليست كذلـك عند المالكية ولذا كرهوها في الصلاة المفروضة · ومنها ان المرأة عندنا سواء كانت بكرا أم ثيبا لا اجبار عليها من الولي ولو كـان أبا ، بل لا بد من مشورتها ومنحها الحق في اختيـــار من تريد أن

يكون شريكا لها في الحياة الزوجية وانما للاب أن يزوج بنته استبدادا في صورة واحدة فقط وهي أن تكون بكرا دون البلوغ لا غير · ومع ذلك فلها حق في رد ما فعله الأب وغيره حين بلوغها على الفور وما عدا هذه الصورة فالشرط الاساسي في صحة العقد هو رضاها وموافقتها · والحنفية في هذا الباب موافقون للاباضية · وأما المالكية ففي الثيب كذلك · وأما البكر فللاب أن يجبرها على التزوج بمن شاء ولو تجاوزت حد البلوغ ويسمونه لولي المجبر · ومن أبسط المسائل الخلافية جواز رفع اليدين وتحريك السبابة والقنوت في الصلاة عندهم · ومنع هذه الافعال عند الأباضية لمخالفتها مقتضيات الخشوع · والرفع المذكور مع كونه معتبرا عند المذاهب الاربعة من المندوب اليه ندبا غير أكيد فان العامة منا ومنهم يعتبرونه الفارق الوحيد بين الفريقين · والسر في ذلك معلوم وهو أن الصلاة أكثر الفرائض تكرارا وظهورا وشيوعا ·

وأما الطرق الصوفية الكثيرة الشيوع في المذاهب الأربعة كالقادرية والعروسيبة والرفاعية والعيساوية والساعدية والتيجانية والسنوسية والبكطاشية وغيرها كثير فليس لها وجود في المذهب الاباضي ، وهي في نظره من البدع المحرمة شرعا ، ولا يتوقف الوعظ والارشاد وتهذيب النفوس على احداث مثل هذه الطرق والانتساب الى رجالها على النمط المعهود عندهم · ومع هذا فلا ينكر الاباضيون كرامة الاولياء ووجود الصالحين من عباد الله المخلصين ولزوم احترامهم لكن لا على هذا الوجه ﴿واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا﴾·

هذا ولا أعلم بين الفريقين خلافا في الصلاة ووجوبها وأدائها في الأوقات الخمسة وعدد الركعات ، ولا في الحج وأركانه ومناسكه ، ولا في الزكاة ونصابها ومواضع صرفها ، ولا في الصوم ووجوبه وأغلب مصححاته ومفسداته · وقد علمت ما في

دعوناهـــم الى أن نجري عليهم حكـم الله تعالى من دفع الحقوق والخضوع لواجب الاحكام ، فان أذعنوا لذلك تركناهم على ما هم عليه ووجب لهم من الحقوق والاحكام ما يجب لنا وعلينا ، الا مـا كان من الاستغفار فلا حق لهم فيه ما داموا متمادين على ما هـــم عليه ووسعنا واياهم العدل · ولهم حقوقهم من الفيء والغنـــم والصدقات على وجوهها ، ولهم علينا دفع الظلم عنهم كما يجـب لسائر المسلمين ، والعدل في الاحكام والدفاع عنهم · وان غزوا معنا فلهم سهامهم كما لنا ، ومن امتنـــع منهم مما وجب عليه من الحقوق أدبناه بما يقمعه ونرده الى سواء السبيل ، وان جـاوزوا ذلك سفكنا دماءهم واستحللنا قتالهم · وان اعترفوا بطاعتنـــا وانفردوا ببلادهم وأجروا فيها أحكامهم تركناهم · وذلك ما لم يكن رد على آية محكمة أو سنة قائمة ، ونستقضي عليهم منهم من يقوم بواجب الحقوق عليهم ولهم ، ونقبل قوله في ذلك على أسلـــوب القضاة كلهم · ولا يمنعنا من ولاياتهم الا ما هم عليه · ونأخذ منهم كل ما يجب من الحقوق ونردها في فقرائهم وذوي الحاجة منهم · وان اتهمناهم في شيء أعذرنا اليهم ولا نتركهم يظهرون منكرا بين أيدينا اذا كان عندهم منكرا ديانة · ونمنعهم أن يحدثوا في أيامنا ما لم يكن الا أن يكون أمرا لا مكروه تحته · وان خرجوا علينـــا وهزمناهـــم فانا لا نتبع مدبرا ولا نجهز على جريـــح ، وأموالهم مردودة عليهم الا ما كان عائدا لبيت المال فانا نأخذه ونصرفه في وجوهه · ولا نستعمل معهم في ذلك طريقة الزهاد مثل ما فعـــل أبو منصور سنة ٢٦٧ مع ابن طولون حين هزمه شر هزيمة بعسكر نفوسة فلم يأخذ أبو منصور ورجاله شيئا من تلك الاموال الوافرة زهدا وتورعا وتركوها لأهل مدينة طرابلس فتوزعوها وانتهبوها · وان قدرنا عليهم قتلنا منهم كل من قتل أحدا منا بعينـه قصاصا · ونسرح سبيل الاسارى ولا نتبع المنهزمين ولا نعترض أحدا منهم الا من طعن في الدين أو قتـل من المسلمين أو دل عليهـــم فهؤلاء يقتلون اذا قدرنا عليهم الا من تاب قبل ذلك · ونصلي على قتلاهم

وندفنهم ، ونجري المواريث بيننا وبينهم على وجوهها ، والأموال والحرمات على وجوهها اهـ ٠

فليتدبر المنصف في هذا الدستور الاسلامي الذي جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية ، والذي ما برح يقوم بتطبيقه أئمة الاباضية وعمالهم في جميع أدوار تاريخهم السياسي تطبيقا عمليا ٠ خلافا لما عليه الملوك الظلمة الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الى الرسول وما جاء به من أمر ونهي ووعد ووعيد وحلال وحرام وحدود وأحكام ، ثم لا ترى لاتباع أوامرّ الشرع أي أثر في أعمالهم وحروبهم ، بل لا ترى الا السلب والنهب وهتك الأعراض والفتك بالأبرياء وغير ذلك من المناكر التي تقشعر من ذكرها الأبدان وتشمئز من بشاعتها وشناعتها أقسى القلوب ٠ ومع هذا فكثير من المؤرخين يذكرون هؤلاء على أنهم من عظماء الاسلام وملوكه الذين تفتخر بهم الاجيال ٠ غافلين أو متغافلين عن التنويه بأهل هذا القسم المهم من التاريخ الاسلامي الذي ليس في صحائفه الا ما يبيض وجه الانسانية ، ويرفع من كرامة الشعوب المحمدية ، ويبرهن بأسطع الأدلة وأقواها على أن دين الاسلام هو دين العدل والحرية والمساواة المطلوبة لبني الانسان ، متى وجد كهؤلاء الأئمة من يحسن تطبيق قواعده وتنفيذ أحكامه ٠ ولا نذهب بالقارىء بعيدا ، فنظرة في عمل أبي منصور في حربه مع ابن طولون وهو عامل من عمالهم تكفيه حجة على ما هم عليه من التحري لدين الله ٠ ولقد أنقذ هذا البطل حكومة الاغالبة يومئذ من خطر محقق الوقوع ٠ اذ معنوية جيشهم قضى عليها ابن طولون قضاء مبرما ٠ فلولا أبي منصور لتم له القضاء على دولتهم نهائيا بدون شك ٠ لكن لؤم الاغالبة أبى عليهم الا أن يقابلوا هذا الجميل بأقبح ما تراه العيون وتسمعه الآذان قبل أن تمضي سبع عشرة سنة من تاريخه وذلك في وقعة مانو المشهورة سنة ٢٨٤ التي حاربوا فيها النفوسيين وهزموهم هزيمة مؤلمة ، فقد أفحش بنو الأغلب فيهم قتلا ونهبا وسبيا

وتمثيلا ، وأسرفوا أيما اسراف ، وأتوا بكل أنواع الفظائع التي تأباها الانسانية ويحرمها النظام الدولي والشرع المحمدي أشد تحريم · فكأنما الوازع الديني لم يخلق في نفوسهم ولا سكن حتى بجوارها ، ولعمري ان البيتين المشهورين :

ملكنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل اناء بالذي فيه ينضح

لهما أحسن ما يتمثل به أبو منصور ونفوسة عند الفخر والمقابلة بين عملهم وعمل بني الأغلب · فسبحان من لا اله غيره ولا خالق سواه ، يخلق من يشاء كيف يشاء وهو الحكيم العليم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ·

انتهى ما أردنا جمعه والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ·

وكان الفراغ من جمعه في شهر الله المبارك رمضان سنة ١٣٥٥ هـ (سنة ١٩٣٦ م) ·

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مراجع التأليـــف

كتاب السير للشيخ أحمد الشماخي
تاريخ الأزهار الرياضية للشيخ سليمان باشا الباروني
المنهل العذب لأحمد بك النائب الطرابلسي
الشرح الكبير على العقيدة للامام الأكبر محمد اطفيش
تاريخ الجزائر للاستاذ توفيق المدني
تاريخ الجزائر للاستاذ الكعاك
تاريخ طرابلس للشيخ ابن غلبون المصراتي
تعاليق الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الاسلامي
مجلة المنهاج للشيخ ابراهيم اطفيش الميزابي
سير نفوسة للشيخ أحمد الشماخي

فهـــرس الكتـــاب

	صحيفة
الخطبـــــة	١
المقدمـــــة	٢
مقدمة الطبعة الثانيـــة	٩
محمد صلى الله عليه وسلـــم	١٥
خلافة ابي بكر الصديـــــق	١٧
خلافة عمر الفـــــاروق	١٨
خلافة عثمان بن عفان	١٨
خلافة علي بن ابي طالب	١٩
الحســـن بن علـــي	٢٠
معاوية بن ابي سفيان وملكه	٢٠
اليزيد بن معاوية ومعاوية بن اليزيد	٢١
مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير	٢١
عبد الملك بن مروان ومراسلته لامام الاباضية	٢٢
المذهب الاباضي وامامة عبد الله بن اباض	٢٢
جواب الامام ابن اباض لابن مروان	٢٣
الامام جابر بن زيد فقيه البصرة في عصره	٢٧
الامام ابو عبيدة وجمع من ائمة الاباضية وجملة استطرادية نفيسة	٢٨
اباضية اليوم وأين يوجدون	٣٠
انتشار مذهب الاباضية وظهوره بالمغرب ، وامامة الحارث وعبد الجبار	٣١

صحيفة

امامة أبي الخطاب عبد الأعلى اليمني الاباضي بطرابلس والقيروان	٣١
امامة أبي حاتم يعقوب بن حبيب	٣٣
حملة العلم والدين الى المغرب	٣٤
خلافة ابن رستم بتيهرت (عراق المغرب)	٣٥
خلافة الامام عبد الرحمن بن رستم	٣٦
خلافة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن	٣٨
خروج ابن فندين عن الامام ، وتأييد شعيب المصري له	٣٩
خروج خلف بن السمح بحيز طرابلس (نفوسة)	٤٠
أشهر المثرين في عهد عبد الوهاب	٤١
خلافة الامام أفلح بن عبد الوهاب	٤١
خلاف نفاث بن نصر في الجبل	٤٢
خلافة الامام أبي بكر بن أفلح	٤٤
خلافة الامام أبي اليقظان بن أفلح	٤٤
حرب نفوسة وأبي منصور لابن طولون	٤٥
خلافة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان	٤٧
أهم ما حدث في زمنه ، بيعة عمه يعقوب	٤٧
خروج الطيب بن خلف	٤٨
واقعة مانو بحيز طرابلس	٤٨
امارة اليقظان بن أبي اليقظان ، وانقراض ملك بني رستم	٤٩

صحيفة

حال الاباضية بعد انقراض الخلافة الرستمية	٤٩
بعض مشاهير امراء نفوسة	٥١
بعض امراء الأسرة البارونية	٥٢
امارة أبي يحيى زكرياء بن ابراهيم الباروني	٥٤
اصل العائلة البارونية واستمرار نفعها	٥٦
انتشار المذهب الاباضي بالاقطار الشرقية	٥٧
خلاصة تاريخ عمان منذ البعثة النبوية	٥٨
الفات نظر واعتـــذار	٦٠
تنازع الامامة الشرعية والملكية المطلقة	٦١
دولة آل يعرب وائمتها وفتوحاتهم العظيمة	٦٢
غارة العجم وسقوط آل يعرب	٦٣
دولة آل سعيد ومالهـــا .	٦٤
تعليق الشيخ ابي اسحاق ابراهيم اطفيش	٦٧
تعليق الأمير شكيب ارسلان	٦٩
كلمة المؤلف تحت قوله « قلت »	٧١
اهم ما بين الاباضية والمذاهب الأربعة من المسائل الخلافية	٧٣
خاتمة فيما يفعله امام الاباضية مع من تحته من المخالفين	٨١